الواحِديَّةُ

من الخلقِ إلى البعثِ

أد. عقيل حسين عقيل

القاهرة

2018م

(إذا أردت معرفة الخالق فكّر في كيفية خَلق المخلوقات

حتى بلوغ المعجز معجزًا والمستحيل مستحيلًا)

د. عقيل حسين عقيل

المحتويات

الواحديَّة 7

الخَلقُ 12

المخلوق: 17

المستحيلُ: 19

الإعجاز 34

المعجز: 40

النّشوء البشري إعجازًا: 50

تطوّر الإنسان إعجازا: 51

الحلقة المفقودة missing link: 58

نشوء الأزواج إعجازًا: 61

نشوء التزاوج إعجازًا: 64

الوجود 72

الممكن ارتقاءً 79

تحدّي الصِّعاب ممكنًا: 91

بلوغ الخوارق ممكنًا: 101

الموتُ 108

العَدمُ 112

موت الموت 120

البعث 134

صدر للمؤلّف 140
المؤلّفات..... 141
المؤلّف في سطور 154

المقدّمة

بسم الله العليم الحكيم {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[1]، نعم إنَّه لا تفاخر بعلمٍ ألمَّ به من ألمَّ؛ لأنَّه مهما ألمَّ من العلمِ والمعرفةِ فهو القليل من علم الله الواسع؛ فنحن بني آدم كلَّما بحثنا في موضوعٍ أو ألَّفنا مؤلَّفا اكتشفنا جهلنا وكأنَّ الأميَّة قيدٌ علينا، ويا ليتنا نتعلَّم حتى نعلم الكيفية التي بها يُكسَرَ القيدُ قبل أنْ يستبدل.

ومن هنا أقدَّمُ مؤلَّفَنا (الوَاحديَّةُ من الخلقِ إلى البعثِ)، الذي وقف بي في محطات المعرفة استنارة من بعدها استنارة، حتى ارتأيت وجوب الكتابة عن تلك المنارات محطّة من بعدها محطّة؛ فكانت الواحديَّة المفتاح الرَّئيس الذي أدخلني إلى تلك المنارات العظيمة وأخرجني منها مستنيرًا؛ إذ لا علم يستنار به إلّا علمًا من (نور السَّماوات والأرض). فكان الخَلقُ أوَّل محطة يتزعَّمها المستحيل الذي لا يعد التعرّف عليه مستحيلًا (تقف عنده قاصرا، جاهلا، وكأنَّك لم تؤتَ من العلمِ شيئًا، تعلمه ولا تستطيع خرقهُ).

ثمَّ كان الإعجازُ ثاني محطّة استنارة ترشد إلى المعرفة الواعية، والعلم الذي يُعلِّم أنَّ الشيء خُلِقَ من لا شيءٍ يذكر، ثمَّ أصبح شيئًا والأشياء منه تخلق وتستمد كما هو خلق الكون، ثمّ خلق الأرض فيه وجودًا، ثمّ خلق الأزواج منها، كما هو شأن آدم وزوجه، اللذين خُلقا من تراب الأرض جنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماء.

[1] الإسراء 85.

ولذلك، كان الخَلق أوَّلًا، ثمّ جاء النّشوء مترتّبًا عليه، ومن بعده جاء خلق الأزواج من طين، ثمّ جاء خلق التزاوج من نطفة؛ فكان التكاثر على التسيير فيما لا شأن للإنسان به، وكان التخيير وفقًا للإرادة والرّغبة التي تمتدُّ بين شهوةٍ عاطفيةٍ، وخُلقٍ وحُسن تدبُّر وضبط ضمير.

وهذا يدلُّ على أنَّ الممكن هو المحطَّةُ الثالثة للاستنارة، وهو ليس بمستحيلٍ ولا معجزٍ، ولكنّ فيه من الصّعب ما فيه، يتحقّق على أيدي البعض ارتقاءً، ويتحقّق على أيدي البعض دونية وسُفليّة، ولهذا فالممكن فيه من الموجب، وفيه من السَّالب ما يساويه، وفيه من المتوقَّع، وفيه من غير المتوقَّع ما يساويه.

أمَّا المحطَّة الرَّابعة فكانت واحديَّة الموت التي هي حقٌ يأتيك عدلًا دون أن تطالب به، إنَّه الموت الذي يلاحق الأحياء أينما كانوا وحلّوا في الدَّارِ الدُّنيا دون أن يكون له أثرٌ على الحياة.

ومع أنَّه الموت الذي كنتُ لا أظن موته، فإنَّ المحطّة الخامسة كانت الإجابة عندما قراءة عنوانها (موتُ الموت) حينها حمدت الله أنَّه لا أحد مطلق إلَّا الواحد الأَحدُ جلَّ جلاله.

ولأنَّني لم أوتَ من العلم إلَّا قليلًا كنت أظن أنَّ من بعد (موت الموت) لا شيء إلَّا فراغًا، فكان الخوف يحفُّني من كلِّ جانب إلى أن عُلمت أنَّ العدم آخر محطّة؛ فآمنت بأنَّ الحياة قاعدة وأنَّ الموت استثناء.

أ. د. عقيل حسين عقيل

القاهرة 2018م

الواحديَّة

الواحديَّةُ: صفة من الصِّفات المتعدِّدة للواحد الذي لا يتعدَّد (الله تعالى)، وفي مضمون كلمة الواحديَّة احتواء القوّة، ولا مقارنة لانعدام الشبيه والمثيل والهيئة والصُّورة، وهي لا تنسب إلّا للواحد المتفرّد بالأمر المطلق، وفعلها واحدي: (كُن)، ولا جهد يبذل سوى الأمر إصدارا، ومصدر الواحدية الواحد الأحد.

وهي القوّة المطلقة التي يُرضخ لها طوعا أو كرها وفقا للمشيئة القاهرة، إنَّها المفروضة التي لا بدَّ أن تكون فكانت، والأخذ بها لا يكون إلّا عن إرادة، إذ لا إكراه في الدّين؛ فهي في الوقت الذي غير خاضعة فيه للرأي، خاضعة للإيمان بها، وهي المعجزة التي لم يكن الإيمان بها معجزا، وهي كما تعود صفة إلى الواحد الأحد، تعود إليه أفعالا متفرّدة، أي: صفة الواحد وأفعاله، كما هو حال صفتي الرّحمن والرّحيم، فالرحمن مصدر الرّحمة، والرّحيم فاعلها (محقّق أفعالها مشيئة).

ومن ثمَّ فالواحديّة ليست الوحدانية؛ لأنَّ الوحدانيّة صفة النقص، أمَّا الواحديّة فصفة الكمال، وللتوضيح وجب إظهار مفاهيم كلّ من: (الواحديّة، الأَحَديّة، والأُحاديّة).

الواحديَّة: صفة اسميّة وفعلية للواحد الأحد، تحتوي كلّ الصّفات الحسنى التي لا تكون إلّا بيد الواحد القهَّار، بمعنى: كلّ ما يفوق القدرة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لا يكون إلَّا بيد الواحد المتصرّف في الأمر كيفما يشاء ومتى ما يشاء؛ فالواحديَّة ليست مذهبًا، ولا رؤيةً، ولا نظريّةً، ولا فرقة، إنَّها صفة الواحد وأفعاله المستحيلة والمعجزة.

أمَّا الأَحَديَّة: فهي صفة للمتفرِّد بالأمر المطلق، وهو الأَحَدُ الذي لا يستأذن في أمره من أحدٍ، ولا أحد غيره، والأَحَدُ لا يتكرر ولا يتعدّد وليس له شبيه، ممَّا يجعل الأَحَديَّة صفة أخصّ الله بها نفسه، ولا يمكن أن يتَّصف بها غيره، وهي التي إنْ وُصِفَ بها مخلوقٌ نَكَّرتهُ (جعلته نكرة) كقولك: قال لي أحدٌ: إنَّ الحرَّية تُنتزع انتزاعًا، فمن يكون يا ترى هذا الأحد؟

إنَّه لا يكون إلَّا نكرة.

وعليه:

الأَحَديَّة صفة لا تكون إلَّا لله. وهي الصّفة القطعية المطلقة؛ إذ لا شكَّ في أَحَاديَّة الله ولا شكَّ في تنوُّع غيره.

أمَّا الوحدانية: فهي الانعزال عن الغير والبقاء وحيدًا، ما يجعل الوحيد في حاجة لمن يُؤنِسُهُ في غربته أو وِحدته، وهذه الوحدانية لا تكون إلّا مع المخلوق. إنَّها الوحدانية المؤلمة، والوحداني في حاجة لراعٍ أو لعائلٍ أو معينٍ. وفعلها وعملها وسلوكها في دائرة النسبية المتوقَّعة وغير المتوقَّعة لا يكون إلّا بجهدٍ يُبذل، أي: جهد يترتَّب عليه إنتاجٌ، وتعبٌ، وطاقة تفقد؛ لذلك فالوحدانية تُقرّر وتُسلك من قبل من ارتأى أن ينعزل عن الغير ليبقى وحيدا في الوقت الذي يكون فيه في حاجة للغير إن أراد بقاء.

إذن:

الواحديَّة: صفة اسمية على الخصوص، وصفة فعلها واحدي، وفاعلها الواحد، إذ لا مجال للعدد.

أمَّا الأَحَديَّةُ فهي: صفة اسمية على الاختصاص، وصفة فعلها أَحَديٌّ، وفاعلها أَحَدٌ؛ إذ لا مجال للتعدّد.

وفي المقابل، فإنَّ الوحدانية صفة اسميَّة على الخاصِّية (صفة الممتنع عن المشاركة وهو في حاجة إليها)، وصفة فعلها أحادي، وفاعلها أُحَادَ، ومن هنا تتوالد الأعداد (تشتتًا ونزوعًا).

ولأنَّ الواحدية صفة للواحد جلّ جلاله، والأَحديَّة صفة للأحَد عزَّ وجلَّ فإنَّ المؤمنين بالواحد الأحد موحِّدون وليسوا توحيديين؛ لأنَّ الموحِّدين هم المؤمنون بالله واحدا أحدا، أي: يؤمنون بدين واحد من ربٍّ واحد، وهذه ملّة إبراهيم وكلّ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام.

ولهذا فالأنبياء موحِّدون (موحِّدون الله وداعون لواحديَّته) وليس لوحدانيته، ولا لتوحيده، لأنَّ التوحيد لا يكون إلّا للمتفرّق الذي في حاجة للجمع وهذا يتنافى مع واحديّة الله (الواحد الأحد الذي لا يتعدد). أي: إنَّ التوحيد لا يكون إلّا للمتشتت والمتفرّق والمنقسم، وهنا أقول: إنَّ بعض ما تعارفنا عليه اصطلاحا فيه من المعاني ما يخالف المفهوم.

وعليه: فالتوحيد جهد يبذل من أجل جمع المتفرّق ووضعه في سلّة واحدة، ومع أنَّ التوحيد جهد يبذل فإنَّه هدف، أي: إنَّه هدف الرَّاغب في توحيد المتفرّق.

ولأنَّه جهدٌ وهدفٌ فهو من أعمال المخلوق وأغراضه وغاياته ومأمولاته وليس عمل الله وإنْ كان في مرضاته.

ولهذا جاءت الملّة الواحديَّة من واحديَّة الله وليس لتوحيده، فالله واحد أحدٌ ولا شريك له فلم يكن متعددا ولا متفرّقا ليقال: (لتوحيده)، مع العلم قال البعض: جاء دين التوحيد ليوحد الآلهة (الأرباب المتعدِّدة) في إله واحد (ربٍّ واحد) في الوقت الذي قال فيه الله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا

إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ}[2]، أي: يستغربون ويتعجَّبون من هذا القول، ومع أنَّه لا حُجَّة لهم ولا برهان في دحض قوله تعالى: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فإنَّهم لا يرون الآلهة إلّا متعدِّدة ووفقا للرغبة الخاصّة، فهم مستكبرون على الحقِّ.

ومع أنَّ الآلهة من دون الله نتاج الرّغبة الخاصّة، فإنَّ البعض قبل بتوحيد مجموعة من الآلهة في إله واحد، ولهذا أقول:

لم تأتِ الملَّة وتُبعث الرُّسُل لتوحيد الآلهة، بل لواحديّة الله، أي: جاءت الملَّة مبشّرة بواحدية الخالق وواحدية الدين (واحديَّة المعبود والعبادة) فلو أسلم الجميع وجوههم لعبادة الله الواحد الأحد لكانوا على الوحدة الإلهية موحَّدين، أي: موحَّدين بوحدة المعبود والعبادة، ومن ثمّ فهم ليسوا في حاجة لمن يوحِّدهم.

وعليه: دين الواحدية رسالته: (لا إله إلَّا الله)، وهذا يعني: إنْ لم يؤخذ بواحدية الله فلا شيء إلَّا الفُرقة (نتاج تعدد الآلهة أربابا من دون الله) قال تعالى: {يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[3].

ولهذا فالحنيفيَّة ملّة واحديّة، الله واحد، والدين (الإسلام) واحد. فالحنيفية نسبة إلى دين إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام توحيد لله تعالى ولا شريك؛ ولهذا من ينسب إلى حنيفة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يسمى حنيفيًّا وليس حنفيًّا كما قال البعض، ومن ثمّ فديانة سيدنا إبراهيم هي: الحنيفية، وليس الحنفية. فالحنفي من له علاقة بالحنَفِيَّة وليست له علاقة بالحنيفيَّة؛ ولذلك فالحنفيَّة تدلُّ على المحسوس ولا تدلُّ على المفهوم المجرَّد

[2] الصَّافات 35.

[3] يوسف 39.

الذي يدرك وعيًا. فالواحدية اعتراف بالحقيقة أنَّ الخالق واحد، ولا شريك له، بيده الأمر وهو على كلِّ شيء قدير، ولا حول ولا قوَّة إلَّا به.

ومن ثمَّ تعد الحرّية معطية من معطيات الواحدية؛ إذ الكل في حاجة إليها كونها امتدادا منحه الخالق إلى الإنسان حتى النهاية التي تَمنح للغير امتدادا حتى الوصول إليها، ولا إكراه. قال تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[4]، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[5].

وكذلك يعد العدل صفة الواحد وهو القول الحقّ الذي احتوته الواحدية من حيث إنَّه لا ازدواجية في العدل، فالرّبُّ واحد والعدل واحد، والحريّة واحدة، ومن هنا جاءت الواحدية أمرا ونهيا وتجنّبا.

وهكذا المساواة قيمة واحديَّة خُلق الخلق عليها ولا تفضيل من حيث الخلق، الكلّ من نفس واحدة، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[6]، أي: لا داعي لتباهي البعض على البعضِ، والجميع خلقوا من نفسٍ واحدة، الكلّ من تراب، ومن نفس الطينة اللازبة، والكل يختلف عن الكلّ تنوّعا؛ ممّا جعل الكل في حاجة للكل، {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى}[7]، ولأنَّ الاثنين متساويان خلقا من نفسٍ واحدة، فهما متساويان في الاختلاف أيضا أي: الدرجة التي تختلف بها الأنثى عن الذكر ويختلف الذكر بها عن الأنثى، ولأنّه اختلاف الواحدية

---

[4] الكهف 29.

[5] يونس 99.

[6] النساء 1.

[7] آل عمران 36.

فلا يزول إلى النهاية {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[8]، ومن ثمّ فالاختلاف مساواة (واحديّة) فمثل ما للذكر من رغبات هي بالتمام للأنثى، وكما الذكر يغضب ويفرح الأنثى بالتمام تغضب وتفرح، ومثلما يتألم تتألّم، ومثلما تعطش وتجوع يعطش ويجوع، وهكذا إلى النهاية المساواة واحديّة.

إذن: الاختلاف خلقا مساواة لا انحياز فيها، وهكذا جاءت المساواة من حيث ممارسة الحرية: الحقوق تمارس، الواجبات تؤدَّى، المسؤوليات تُحْمَل. ولأنَّ الواحدية مساواة قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[9].

الخَلقُ

الخَلقُ فعل الخالق، وهو نتاج الأمر (كُن)، والخَلقُ لم يكن من عدم، فالعدم لا يكون إلّا من بعد حياة وموت، ممّا يجعل العدم وجودا من بعد موتٍ وجعل من الأموات رفاتًا بالية بعد أن تصبح جزءًا من التراب الذي خُلقت منه.

والخلق لا يكون إلّا بيد الواحد ولا شريك، أي: الخَلقُ (طبيعة الخَلق) واحد ولا يتعدّد، وإن تعدّدت المخلوقات من الواحد الذي لا يتعدّد.

فالخَلقُ إيجاد ما لم يكن من قبل موجودا، وهو كيفية غير مسبوقة، به تُبدع الهيئة، ويبدع المشاهد والملاحظ والمتمدّد والسّاكن؛ فالخلق فعل

[8] هود 118، 119.

[9] النحل 97.

الخالق، وهو المقدرة المطلقة على إيجاد الشيء واللاشيء إذ لا شيء قبل الخَلق إلّا الخالق.

فالخلق تكاثر زوجي: (سالب وموجب، ذكر وأنثى) مؤسّس على التضادّ، ثمّ على التنوّع والاختلاف، والتجمّع والافتراق، والتمدّد والانكماش، والحياة والموت، والعدم، وموت الموت والبعث، وهكذا هي والبداية إلى النّهاية.

ولأنّه الخلق؛ فلا خلق إلا لهدف وغرض وغاية، وهذه جميعها مجرّدة؛ فلا تُخلق خلقا، بل تدركها العقول إدراكا، حيث لا المادّة ولا الرّوح تخلقها، بل تُبثّ بثّا من العليم إلى من يتعلّم.

ولأنَّ الخلق فعل، إذن: لابدَّ أن يكون من ورائه فاعل (خالق)، ولأنَّ الخلق فعل ومن ورائه فاعل (خالق) إذن: الخَلقُ لا يكون إلَّا بيد الخالق، ولهذا وراء كلّ مخلوق خالق؛ أي: لا يخلق المخلوق نفسه، وبما أنّه على قيد الوجود فلا يكون إلَّا مخلوقا.

ولهذا فالذين قالوا: إنَّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه، سيجدون أنفسهم أمام تساؤلات وحجج وبراهين شاهدة على بطلان قولهم.

فالخَلقُ لا يكون هكذا عبثا، بل من وراء المخلوق غاية عظيمة، لا يعلمها إلّا العالم بها، والعالم بها كان وراء وجودها، ولذا هل يمكن للمخلوق أن يعلم الغاية من وراء خلقه؟ بالطبع لا يعلمها إلَّا خالقها.

ولأنّ الكون لم تكن له صفة العليم؛ فكيف له ببث هدف يتحقّق، أو غرضٍ يُنجز، أو غاية يتمّ بلوغها.

ولأنَّه لا هدف ولا غرض ولا غاية للكون من خلق نفسه، إذن: فمن أجل مَنْ خَلق الكون نفسه؟ وإلّا هكذا خَلق نفسه عبثا؟ كون بلا غاية، لا يمكن أن يدرك ما سيلمّ به من تجمّد وانكماش وانفجار وتبعثر ونهاية؟ كون يجهل ما سيلم به، كيف له أن يكون خالقا؟ ثمّ، على أيّة قاعدة تأسّس قول البعض: (كون خُلق من لا شيء ولا خالق له)؟

ولأنّ الخالق (يَخلق ولا يُخلق) فهو القادر على إظهار هيئة الشيء قبل أن يكون شيئا، ذلك لأنّ هيئة المخلوق سابقة على خلقه؛ فهيئة الكون في علم خالق الكون هي سابقة على خلقة كونا، ولذلك؛ فالخالق هو: مُوجِد هيئات الخلائق قبل أن يجعلها أشياء على الصّور والأشكال، سواء أكانت متناهية الكبر، أم متناهية الصّغر (الشيء واللاشيء).

ولانَّ هيئة المخلوق تسبق خلق شيئا؛ فهل هيئة خلق الكون كانت مسبوقة عنده قبل أن يخلق نفسه كونا من لا شيء؟

ولأنّ الخالق لا يخلق نفسه، ولا يخلقه غيره، إذن؛ فكيف للكون بخلق نفسه من لا شيء؟ ولأنّ الخالق له صفة الخلق؛ فهل للكون هذه الصّفة التي لا تنقطع، أم أنَّ الكون خلق نفسه من لا شيء، ومن بعدها خسر صفته؟ وهل الكون خلق نفسه بصفة الخلق؟ أم أنّه خُلق عليها؟ أم أنّه خُلق بدونها؟ أي: هل صفة الخلق هي التي خلقته أم أنّه هو الذي خلقها؟

فإن كانت صفة الخلق خالقة للكون؛ فهي: سابقة عليه، وإن كان خالقها؛ فهو السّابق عليها، وإن خُلق معها؛ فلابدَّ من خالق لهما.

وإذا كانت صفة الخلق سابقة على الكون من لا شيء؛ فمن الذي خلقها لتكون صفة خلّاقة؟ وإذا قال البعض: إنّ صفة الخلق قد وُلدت في الكون ولادة؟ فالسؤال:

من الذي ولدها؟

وممَّ ولدت؟

وكيف ولدت؟ ومتى؟

ولأنّه لا إجابة قاطعة للشّك، إذن؛ فمقولة: (الكون خُلق من لا شيء، ولا خالق له) أصبحت حُجّة بلا حجّة {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ}[10]، وإذا سلّمنا أنّ: (الكون خُلق من لا شيء ولا خالق له)؛ فلا بدّ أن نسلّم بأسبقيته على كلّ خالق، ولكن الخالق يقول: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[11]؛ فما الرد؟

ولأنَّ صفة الخلق سابقة على وجود الكون فكيف للكون بخلق نفسه؟

ولأنّ قاعدة المنطق العلمي تنصّ على أنّ: (الخالق لا يخلق نفسه، ولا يخلق من غيره) إذن؛ فكيف للكون بهذه الصّفة الخلقية؟

ولأنّ الكون لا يخرج عن كونه شيئا؛ فالشيء لا يمكن أن يكون إلّا مخلوقا. ولأنّه المخلوق؛ فلا يمكن أن يكون خالقا؛ فالخالق (لا يكون شيئا، ولا يكون لا شيئا، ولا يكون شيئا آخر). بل هو الخالق، الذي يَخلق ولا يُخلق، {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[12].

---

[10] فاطر 3.

[11] الواقعة 60.

[12] النور 45.

ولأنَّ القاعدة الخلقية تنصّ على أنّ الخالق (يخلق ويحيي ويميت)؛ فهل الكون يحيِ ويمتْ؟ فإن لم يحي ويميت، لا يمكن له أن يكون مخلوقا من لا شيء، ولا يمكن أن يكون من غير خالق؛ فالله تعالى لو لم يخلق الموت لكفر الجميع، ولأنّه خلق، ويخلق، وأمات، ويميت؛ فهو الخالق ولا شريك له.

ولكن، لو خُلق الكون من لا شيء ولا خالق له، لكان الكون على القوّة الرّاعية لبقائه؟ ولأنَّه لا يمتلك ذلك؛ فهو المعرّض للتجمّد والانكماش والتبعثر والانفجار والفناء.

ولأنّ المنطق العلمي يقول: (الخالق يبقى والمخلوق يفنى)؛ فهل للكون هذه الصّفة التي تبقيه خالقا؟

ولأنَّ الكون وفقا لأحكام علماء الفيزياء سينتهي لا محالة، إذن: فلا علاقة له مع صفة الخَلق التي ألصقت به.

ومن ثمّ؛ فقاعدة الخلق تنصّ على أنَّ: (صفات الخلق تستمدّ من الخالق، ولا تضفي عليه)، إذن: فلا وجود لعلاقة تربط الكون مع صفة الخلق (كونه شيئا مخلوقًا).

وصفات الله تعالى تستمدّ منه، ولا يستمدّ منها، ولا يمكن لأحدٍ أن يصفه بأيّة صفة، إلّا التي وصف بها نفسه، وهنا يكمن الإعجاز، وإلّا هل هناك من يستطيع استمداد صفة من اسم (الله)؟

لا أحد.

ولهذا، وصف الله نفسه، (الرّحمن الرّحيم الملك القدوس السّلام وإلى النّهاية التي لا تنهي صفات الله)..

إذن: فالخلق صفة الخالق، والغاية من الخلق البقاء، والقاعدة: (الحياة الدّائمة).

والاستثناء: (الموت والانتهاء)، {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْو وَلَعِب وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[13].

وعليه: حتى وإن سلّم البعض بأنَّ الكون قد خلق نفسه من لا شيء؛ فلا يمكن لهم أن يسلّموا بمقدرة الكون على خلق غيره، ولأنّه غير قادر؛ فهو قاصر لا يمتلك صفة الخلق ومقدرة الخالق، فالخلق كيفية غير قابلة للمشاهدة ولا الملاحظة، وغير قابلة للجمع والطرح كما هو حال المخلوق القابل لكلّ ذلك؛ فالخَلقُ كيفي، والمخلوق كمّي. ومن ثمّ فالخَلق صُنع الخالق، {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[14]، ولهذا؛ فلا شيء قَبل الخَلق إلّا الخالق، ولا شيء بعد الخلق إلّا المخلوق.

المخلوق:

كلّ من وُجد على كينونة ليست باختياره هو مخلوق يشاهد ويلاحظ ويُحسّ به. أمّا ما يميّز المخلوق العاقل فهو المدرك لغايته، وغير المدرك للغاية التي من وراء خلقه؛ فالغاية من خلق المخلوق لا يعلمها إلّا الخالق، ولهذا، خُلق على التسيير والتخيير.

وحتى إن اعتقد البعض إنّ بإمكانه مشاهدة الخلق من خلال مشاهدة أجنّة الأنابيب؛ فهو في هذه الحالة كمن لا يميّز بين (الخلق والمتخلّق)؛ لأنّ ما يشاهد لم يكن (خلقا) بل هو: (المتخلّق)؛ فالخَلقُ، كيفية بين يدي الخالق، فيها تنتقل هيئة المخلوق من مجرد إلى ملاحظ،

---

[13] العنكبوت 64.

[14] النمل 88.

ثمّ إلى مشاهد. ولذلك في مرحلة الخلق لا إمكانية للمشاهدة، ولكن التحاليل المعملية تثبت ملاحظة عملية الخلق التي قد بدأت، ومن ثمّ فلا شيء يشاهد أثناء عملية الخلق التي تسبق عملية التخلّق القابل للمشاهدة.

ولأنَّ المخلوق لا يمكنه الدّراية بكيفية خلقه؛ فهل يمكن له أن يدري كيفية خلق من سبقه خلقا؟ وهل يمكن للمخلوق الذي يجهل كيفية خلقه أن يعلم كيفية خلق الكون الذي لا يزال قاصرا عن معرفة خفاياه؟

وهل الحكم الذي أقرّه بعض الفيزيائيين (الكون خُلق من لاشيء، ولا خالق له) هو حكم مشاهد، أم حكم ملاحظ، أم أنّه حكم مفسّر؟

فإن كان الحكم نتيجة المشاهدة؛ فلا بدّ أن يكون المشاهد قد حضر زمن خلق الكون، وهذا ضرب من المستحيل، وإن كان ملاحظا فلابدّ من تجربة تخضع الكون للتجربة، وهذا ضرب آخر من المستحيل، ولكن إن كان تفسيرا فالتفسير دائما يرتبط برؤية المفسّر التي لا تخرج عن دائرة الممكن المملوءة بالشكوك والظّنون.

ولذلك؛ فالمخلوق مكوّن وجودي (مشاهد وملاحظ)؛ فالمشاهد منه يخضع للرّؤية، أمّا الملاحظ فيخضع للإدراك، والمخلوق لا يقتصر على البشر كما يظن البعض، بل هو كلّ مخلوق، سواء أكان شيئا أم لا شيء (متناهٍ في الكبر أم متناهيا في الصّغر).

فالمخلوق مهما كبر وعظم لن يكون الخالق، وبالتالي فهو مستوى دنيوي، فاقد لصفة البقاء والدّيمومة.

ومع أنَّ المخلوق البشري قد تميّز بحسن التقويم فإنَّه لا يقبل التسليم والطّاعة كما قبلت به بقية الخلائق {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ

وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}[15] هكذا هو الكون طائعٌ يسبّح بحمد خالقه (الله)، {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[16] وفي المقابل: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}[17].

المستحيلُ

وهو: ما ليس بيد البشر، وغير ممكن الحدوث على أيديهم؛ فلا يُفعل من قِبلهم، ولا إمكانية لبلوغه، ولكن لو لم يكن ما كنّا، ولأنّه كائن فلا إمكانية لتجاوزه، ولا إمكانية للقفز عليه وكأنّه لا وجود. إنّه الحائل بين الممكن النّسبي (كلّ ما هو بيد المخلوق) والممكن المطلق الذي لا وجود للصّفر فيه وهو لا يكون إلّا بيد الخالق.

فالمستحيل لا يكون إلّا حيث لا تكون الإمكانية، وهو ليس الصّعب؛ فالصّعب يمكن بلوغه في دائرة الممكن غير المتوقَّع، أمّا المستحيل فلا إمكانية حيث وجود الصّفر بداية ونهاية.

والمستحيل لا يُوجِد نفسه ولا يخلقها، بل لا بدّ من خالق من ورائه، إنّه القوّة التي لا تكون إلّا بيد القوي، الذي لا يُفعل المستحيل إلّا بأمره. ومع ذلك؛ فالمستحيل أمرٌ في ذاته، حيث يقف المخلوق عند حدٍّ لا يدرك من بعده شيئا سوى الوجود الذي لا يكون إلّا بفعل الفاعل الذي

---

[15] الإسراء 44.

[16] فصلت 11.

[17] الكهف 54.

جعله وجودًا؛ فالفاعل لو لم تكن بيده القوّة المطلقة ما كان المستحيل فعلا مستحيلًا.

فالكون لو لم يكن عملًا مستحيلًا ما كان انفجاره أو فتقه عظيمًا، ومع أنَّ المستحيل شيء يتحقّق، فإنَّه لا يوصف بشيء (إذ لا صفة له) بل هو الفعل المتحقق بالقوّة وفقا للمشيئة التي لا تكون إلَّا بيد الخالق تعالى، أي: لو لم يكن المستحيل شيئا ما تحدّثنا عنه، ولأنّه شيء ونتحدث عنه؛ فهو يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن وراءه؛ فنحن نقف عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبّرنا أمره فليس لنا إلّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلّا أعظم منه؛ ومن ثمّ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق.

ومن هنا، افترق البعض القليل من النّاس مع البعض العظيم؛ فالقليل منهم وقف عند معجزة المستحيل في ذاته، أمّا الأعظم من النّاس فلا يؤمنون بعظمة المستحيل إلّا بعظمة فاعله المطلق الذي خلقه حائلا لا يُخترق.

ولأنَّ المستحيل نتاج طاقة وقوّة فهو فعل يُفعل؛ فينتج عملا قابلا للملاحظة والمشاهدة، ولأنّنا نقف أمام المستحيل عاجزين فَلِمَ لا نقف أكثر عجزا أمام الفعّال له؟

وعلماء الفيزياء اكتشفوا أنّ الكون يتمدّد متسارعا، وهم عاجزون عن إيقافه، بل هم عاجزون عن قياس سرعة تمدّده، كما أنّهم عاجزون عن معرفة نقط صفر النّهاية التي سيتوقّف عندها، ومع ذلك يرى البعض أنّ الكون يتمدّد متسارعا، ولا شيء وراء تمدّده متسارعا، أي: لا إله من ورائه، وكأنّه تمدّد بلا غاية.

ومع ذلك أجمع علماء الفلك والفيزياء على أنّ للكون نهاية، وليس له بدّ إلّا بلوغها، وهي الانكماش أو التجمّد أو الانفجار الذي ينهي تمدّده المتسارع ويقفه عند حدّه، أو يكون سببا في إعادة تشكيله من جديد، أو كما نرى نحن إعادة رتقه مع الأكوان الأخرى التي سبق أن فُتقت لتعود إلى حالتها الطبيعية التي خُلقت عليها عوضا عن الحالة التي أصبحت عليها طِباقا.

وبما أنّ الفيزيائيين واثقون من نهاية الكون؛ فالسؤال:

من الذي وضع له نهاية؟ ثمّ كيف وضع الكون لنفسه حدّا وهو لم يصل إليه بعد؟

أقول:

كلّ ما قيل في هذه الخصوصية ليس بحكما علميًّا، بل مجرّد آراء لا تتعدّي نظرات أصحابها الذين انبهروا بما رأوه من مستحيلات حتى ظنّوا أنّها الخالق؛ وهم بهذه النظرة كمن لا يميّز بين الخالق وما خَلق. ولكن، وفقا لقاعدة المستحيل المؤسّسة على خَلق الشيء من لا شيء؛ فلا شيء إلّا ومن ورائه مشيء، وسيظل الأمر كلّ شيء من ورائه مشيء حتى بلوغ المستحيل الذي لم يكن من ورائه إلّا المستحيل الذي يؤدّي بالواعين إلى التّسليم.

ومثلما يكون وراء كلّ شيء شيءٌ كما هو حال بني آدم الذين هم من نطفة، وآدم من تراب؛ فكذلك يكون وراء كلّ مستحيل يشاهد ويلاحظ مستحيل لا يمكن مشاهدته ولا ملاحظته، مع إنّه يُدرك استحالة؛ فالمستحيل كفعل يتحقّق عملًا؛ فهو: مثل خلق الكون، والحياة والموت والشّروق والغروب، أمّا المستحيل كذات فلا يتجسّد في شيء

يمكن أن يكون من ورائه شيء آخر؛ فيصبح التسليم به إعجازا إذ لا شكّ في وجوده، والمستحيلات تتحقّق بين أيدي النّاس في كلّ جزئية من الزّمان والوقت ولا أحد يستطيع إيقافها أو الحدّ منها. ولذا؛ فمعرفة المستحيل تُمكّن من معرفة مستحيلات أعظم حتى بلوغ المستحيل مستحيلًا.

فالكون الذي قالوا عنه خُلق من لا شيء ولا خالق من ورائه؛ فبقولهم هذا يعترفون بوجوده، والخالق من ورائه، وإلّا لماذا قالوا: (خُلق من لا شيء) فكلمة (خُلق) تعيد أمر الخلق للخالق وليس للشيء المشار إليه بأنّه قد خُلِقَ من لا شيء.

ولأنّ وجود الكون شيءٌ مستحيلٌ؛ فلا شكّ أنَّ من ورائه ما هو أعظم استحالة، وهنا يكمن القصور بين إدراك المستحيل الأوّل (الخالق) وما يراه المستحيل اللاحق (الإنسان) الذي خُلق مستحيلا؛ فالإنسان مع أنّه خُلق مستحيلًا، فإنَّه لا يخلق المستحيل؛ ولهذا فالقاعدة:

(من يَخلق المستحيل لا يُخلق).

ولأنَّ من يخَلق المستحيل لا يُخلق، والكون خَلق مستحيل؛ إذن: فالمستحيل (الكون) يُخلق وخالقه لا يُخلق، ولهذا، كان خلق الكون مستحيلا مثله مثل أيّ مستحيل.

والقاعدة الخلقية تقول:

(المستحيل قوّة تَخرق ولا تُخرق).

ولأنَّ المستحيل قوّة اختراق لكلّ قوّة وإن اجتمعت، فقوّة الكون تمدّدًا وتسارعًا ستقف وتنتهي انكماشًا أو انفجارًا عظيمًا، أو رتقًا أعظم،

وهذا يدلّ على وجود مسيّرٍ للمستحيل، وموقف له، أو مفجّر، أو راتق له، إذ لا استحالة أمام الفعل المستحيل.

ومن ثمّ؛ فالتوقّف عند المستحيل عن وعي يمكّن من عدم الوقوف عنده نهاية؛ فالمستحيل فعل لا يتحقّق إلّا وفق مشيئة فاعله، وهو الذي ينبغي أن يدرك بمشاهدة وملاحظة مستحيلاته، حتى يدرك أنَّ إدراكه مشاهدة وملاحظة هو الاستحالة بعينها. ولذلك؛ فالقاعدة الخَلقيّة تقول:

(المصوِّرُ المطلق يرى ولا يُرى).

ومن هنا؛ فلا إمكانية لرؤية المصوِّر المطلق كونه لا يُصوَّر، ولهذا؛ فخالق الشيء لا يمكن أن يكون الشيء؛ ذلك لأنَّ الشيء يُخلق والمشيء لا يُخلق.

ولأنّ المشيء لا يمكن أن يكون شيئًا، إذن: فكيف للكون كونه شيئًا أن يكون مشيئًا لخَلق ذاته؟

هذا ما ارتآه بعض علماء الفيزياء الذين وقفوا على معجزات الخالق وكأنّها خالقة لنفسها، ومن لا شيء، وفي هذا الشأن وكأنّهم يقولون: نحن خُلقنا شيئا من لا شيء في الوقت الذي هم فيه يعلمون أنّهم قد خُلقوا من ترابٍ. وإلّا كيف يقبلون بخلقهم من تراب وهم يعلمون أنّ أباهم آدم لم يخلق نفسه، وهو من تراب، أي: بما أنّ آدم من تراب، ولم يكن ترابًا؛ فمن الذي خلقه آدمًا؟

إنَّ هذه القاعدة تسري بالتّمام على خَلق الكون الذي قالوا عنه: إنّه من ذلك الانفجار العظيم لتلك الذّرة التي لم يقولوا عن خلقها شيئا، وهي التي لو لم تُخلق ما كانت ذرة، وما انفجرت كونا عظيما كما يدّعون

بلا دليل سوى وجود أثرٍ يشير إلى الانفجار، أو يشير إلى ما يشبه الانفجار، في الوقت الذي قال فيه الخالق غير ذلك: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[18].

وبناء على هذا القول تساءلنا:

أيّهما أولى: أن نأخذ بقول الخالق، أم نأخذ بقول المخلوق؟ ومع ذلك قبلنا قول المخلوق لنأخذ بقول الخالق.

فالخالق الذي خَلق الكون وكوّر فيه النّجوم والكواكب كما كوّر منه الأرض التي خُلق الإنسان الأوّل من ترابها عندما كانت مرتقة في السّماوات جنّة، قال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}[19]. فكيف بمن لم يكن سابقا على قوله تعالى، أن يقول: إنّ الكون خَلق نفسه؟

وإذا سلّم من سلّم بهذا القول فسيجد نفسه في مواجهة مع خلق نفسه التي لم يخلقها. وبتسليمه هذا ليس له بدّ إلّا الاعتراف بأنّه لا إمكانية أن يخلق الشيء نفسه. أي: كيف لمن يعرف أنّه خُلق من نطفة أن يقول شيئا غيرها؟

ولأنّ قاعدة الخلق تقول: الشيء يُخلق ولا يَخلق.

إذًا؛ فمن خُلق من نطفة ليس له بدّ إلّا استمداد قاعدة خلقه من شيء (تراب أو نطفة) ليستقر بها خلق الشيء الذي لا يمكن أن يخلق نفسه. إنّها المسلّمة لمن يدرك أنّه لم يَخلق نفسه، لكونه يدرك خلقه من النطفة التي من قبلها يعلم أنّها لولا التزاوج ما كانت، وكذلك من قبلها يدرك أنّ أبويه (آدم وزوجه) لم يكونا من نطفة، وهنا تكمن العلّة التي

[18] الأنبياء 30.

[19] الزّمر 62.

قفز عنها بعض من علماء الفيزياء بقولهم: إنّ الكون خلق نفسه ولا خالق من ورائه.

ومع أنّهم يؤمنون بخلق الأشياء، فإنَّهم عند ما وقفوا عند أكبرها (الكون)، قالوا: إنّه شيء، ولكنّه خالق. وهذا ما يتعارض مع قواعد الخَلق:

. هيئة الشيء تسبق الشيء وجودا.

. وراء كلّ شيء مشيئة.

. وراء كلّ مخلوق خالق.

. الخالق يرى ما خلق، والمخلوق لا يرى خالقه.

ولذا؛ فالكون لو لم يكن له مكوّن ما كان كونًا، والخَلقَ لو لم يكن من ورائهم خالق ما خُلقوا، والعلم لو لم يكن من ورائه العالم ما عُلّم، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[20].

وعليه:

فالمستحيل فعل، والفعل لا يشاهد ولا يلاحظ إلّا إذا تجسّد في عملٍ؛ ولذلك فالمستحيل طاقة تُمكّن من إيجاد ما لم يسبق وجوده، ومن ثمّ فالمستحيل فعل أوجد كونا متمدّدا ومتسارعا في تمدّده، ثمّ خُلق منه، وفيه ما خلق مستحيلا، وكلّ ما خُلق استحالة لا يُخلق ممّن لا يتجاوز جهده دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

ولأنَّ الكون خُلق خَلقا مستحيلا؛ إذن: فلا إمكانية لخلق كون مثله إلّا من الذي خَلقه مستحيلا، ومن هنا، استقراء علماء الفيزياء

[20] البقرة 31.

والفلك وجود أكوان أخرى خارج كوننا المتمدّد تسارعا، ومع أنّهم اكتشفوا معطيات تشير لذلك، ولكنّ ما هو أعظم: إنَّ الخالق قد أخبر عنها وضوحا، ويا ليتهم يطّلعون على الكتاب لعلّهم يرشدون إلى ما هو أعظم علمًا ومعرفةً، قال تعالى:{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}[21]؛ فقوله: (كَيْفَ خَلَقَ) هنا يكمن المستحيل؛ إذ لا إمكانية لمعرفة الكيفية التي بها خلقت الأكوان طِباقا، ولأنَّ معرفة (كيف؟) أمر مستحيل فأخبرنا الخالق عن (الكيف) بقوله: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[22]. أي: بعد أن كان الكون ملتحما سماوات وأرضين، فُتق مستحيلا إلى سبع سماوات وسبع أرضين، وبما أنّنا نعلم بفتق الأكوان فَلِمَ لا نبحث حتى نكتشفها مستحيلًا بعد مستحيل.

ولذلك؛ فالأرض لا تَخلق الأرض، والسّماء لا تَخلق السّماء، وعالم الفيزياء لم يلد نفسه ولم يخلقها، وحتى إن خُلق الشبيه بأيّ مفتاح من مفاتيح العلم؛ فلن يُخلق الشبيه البشري إلّا من خلية حيّة، وحتى إن خلق الشبيه فسيظل شبيها؛ ولذلك فقضية الخلق (الحياة) لن تكون إلّا بيد من بيده أمر الحياة.

ولأنَّ المستحيل لا يمكن أن يُدرك إلّا عندما يصبح شيئًا مفعولًا، إذن: فالمستحيل عندما يتجسّد في عملٍ يصبح مفعولا شكلا أو صورة أو شيئا مشاهدا وملاحظا، ولأنّه المفعول؛ فلا يكون إلّا بفعل الفاعل، ولأنّه بفعل فاعل المستحيل؛ فهو لم يَخلق نفسه، بل من ورائه خالق المستحيل الذي لم تتمكّن عقول بعض الفيزيائيين من التمييز بينه وبين

[21] نوح 15.

[22] الأنبياء 30.

فعله الإعجازي؛ فعقول البعض وقفت عند المستحيل وكأنّه الخالق، وهنا تكمن العلّة المعيقة للبعض من الارتقاء وإحداث النُّقلة.

ولذلك؛ فالكون لو لم يكن مخلوقا ما كان مستحيلا، والاستحالة من أجل أن تُدرك ينبغي أن تلاحق وتتابع استحالة بعد استحالة، وكأنّها تتدرّج من الصّعب إلى الأصعب؛ فخَلق الكون وتسييره أكبر المستحيلات التي تمّ إدراكها عقلا، ثمّ خَلق المشاهد في ظُلمة، فيها خُلقت الأرض كما خُلقت النّجوم والكواكب والمجرّات، ثمّ خلقت الأزواج من الأرض وهي مرتقة في السّماء، ثمّ من بعدها خُلق التكاثر تزاوجا؛ فكلّ هذه المخلوقات هي نتاج الفعل المستحيل؛ ولذلك فبمقارنة خلق الأزواج من الأرض وهو الأقرب لعقول البشر، نجد أنّ الخلق من لاشيء (خلق الكون) يبدو وكأنّه أصعب من خلق الأرض، وهكذا خَلق الأرض يبدو وكأنّه أصعب من خلق آدم وزوجه المخلوقين منها، وكذلك الخلق من التزاوج على الصّعوبة التي لا تقارن لو لم يكن هناك ما هو أعظم خلقا منه.

ومع أنّنا ندرك أنّه لا صعوبة بالنّسبة للخالق كونه يخلق بأمره ما يشاء متى ما يشاء، وأينما يشاء، وكيفما يشاء، ولكن لتقريب المعنى وتوصيل المفهوم دلالة استمددنا مثالنا توضيحًا للمستحيل الذي لا يكون إلّا مخلوقا ومفعولا من خالق يَخلقه ويفعله، ولذلك؛ فلا وجود للصّعب على من بيده أمر الخلق استحالة، ولكنّ الصّعب يواجه من يحاول بجهده ومقدرته المحدودة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

فالمستحيل فعل لا تواجهه الصّعوبة، لأنَّ أمره كُنْ، بل الصّعوبة تواجه الممكن الذي لا يكون إلّا في حدود الجهد والإمكانات المتاحة؛ فالمستحيل لا علاقة له بالجهد، بل له علاقة بالفعل المطلق الذي لا

يكون إلّا بيد من فعل المستحيل الذي به خُلق الكون تمدّدا وتسارعا إلى النّهاية التي من بعدها ستؤول الأكوان كونا مرتقًا.

ولذا؛ فعندما تُرتق الأرضون والسّماوات يعود الكون كما خُلق أوّل مرّة، {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}[23]؛ فالوجود هكذا سيكون بين تمدّد وانكماش حتى النّهاية التي تعتدل فيها الأكوان على كرسي خلقها بلا استحالة.

فالمستحيل لا يكون بالعمل، بل المستحيل لا يكون إلّا بالفعل؛ لأنَّ العمل يتحقّق وفقا لما يُبذل من جهد وما ينجز منه، أمّا الفعل فلا يتحقّق إلّا بفعل الفعّال، حيث لا حاجة للجهد (كن فيكون)، وعن غير مقارنة؛ فأنا مثل غيري، بنظرات عيني فقط، أقول لأبنائي اصمتوا، أو اجلسوا، أو اخرجوا؛ فما بالك بخالقي وخالق الكون وكلّ شيء مستحيل، ألا تكفي كلمة (كن)؟

وعليه:

فكلُّ ما لم يكن مستحيلًا أو معجزًا هو ممكن، والفرق بينهما: أنّ الممكن قابل للإثبات أو الاكتشاف، وهو في حاجة لمن يبرهن على معطيات وجوده، وهو قابل للإثبات مثلما هو قابل للنّفي والرّفض، وقابل للظّهور مثلما هو قابل للكمون.

ولهذا، لو لم يكن ممكنًا ما تمَّ إثباته واكتشافه وظهوره وكمونه والشّكّ فيه، ومقارنته مع غيره، أو معرفة مدى ترابطه أو ثباته أو اهتزازه.

أمّا المستحيل: فهو المثبت الذي نعلم به ولا نعرف كيفيته إن لم يخبرنا عنها فاعله تعالى، فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بيوم البعث،

[23] الرّوم 11.

ولكنّهم استحالة لا يعرفونه، ولا يعلمون ساعته، ولذلك؛ فالخلائق تموت ولا أحد يستطيع إيقاف الموت عنها، والأحياء يخلقون ولا أحد يستطيع بث الحياة فيهم إن لم يولدوا أحياء. وهكذا الشّمس تشرق وتغرب ولن يستطيع أحد تغيير أمرها أو تبديله.

ولأنَّ وجود المستحيل لا يُنفى، ولا يُلغى، ولا يُقدّم ولا يؤخّر فهو متحقّق في زمن المفاجأة، فالصّواعق والزّلازل والبراكين لابدّ أن تحدث، ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنها، والمرض آتٍ، ولكن ينبغي أن نعمل ما من شأنه أن يقي عنه، ويشفي منه، والصّحة تضعف، والعمل على تقويتها ضرورة ممكنة، والموت لا شكّ أنّه آتٍ وإن أطلنا في أعمارنا وبلغنا عمر نوح عليه السّلام أو حتى تجاوزناه سنين؛ فكلّ ذلك ممكن علما وبحثا ومعرفة. ولكن أن نلغي الحياة أو الموت حتى وإن دمّرنا ما يمكن لنا تدميره؛ فلا إمكانية، وهنا يكمن المستحيل، أي: إنّ أمر المستحيل بين يدي فاعله أمر نافذ؛ فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم السّبت فإنّ يوم الأحد سيأتي غدًا وفقًا لِعِلمنا ومعرفتنا، ولكن مستحيلًا كلّ شيء ممكن، فيمكن أن يحدث الانفجار العظيم ثانية، أو سينكمش الكون، أو أن يُرتق في لحظة المفاجأة ولن يأتي الأحد غدا كما هو متوقَّع.

ذلك لأنَّ المستحيل هو فعل يُفعل بغتة (في زمن المفاجأة)، وهو الذي يحتوي دائرة الممكن، والممكن لا يحتويه، فالممكن لا يكون إلّا وفقا للاستطاعة، ولا يتحقّق إلّا على أيدينا، أمّا المستحيل فهو ما لا تستطيع قوّتنا فعله، ولا أيدينا عمله، ولا عقولنا إدراكه ومعرفة كيفيّته. ومع ذلك فمن الضّرورة التفكير فيه بعمق ودون ملل؛ فالملل يحول بين الحقيقة والباحثين عنها.

ولذا، ينبغي على البحاث إن أرادوا معرفة المجهول أن يصوغوا له تساؤلات؛ فالتساؤلات تقود إلى معرفة المجهول في دائرة الممكن، ومن ثمّ؛ فالبحاث الذين يعتمدون على صياغة الفروض العلمية فلن يتمكّنوا من معرفة المجهول، بل يتمكّنون فقط من معرفة النّصف المتبقي من المعرفة المتوفّرة لديهم؛ فالفروض وإن عظمت نتائجها فهي لا تصاغ إلّا ونصف المعلومة غير مجهول، وللضّرورة هم يبحثون بهدف معرفة ما يتمّم نصف ما لديهم من معرفة.

ولذلك؛ وجب تقدير الشّطحات العلمية؛ فهي في دائرة الممكن قد تؤدّي إلى معرفة المجهول، أمّا بالنّسبة لما هو مستحيل فالشّطحات عندما تكون موضوعية فهي تمكّن من معرفته وإن قصرت عن معرفة الكيفية التي هو عليها، ولكن عندما تكون الشّطحات غير موضوعية فهي بلا شكّ ستزيد الهوة اتساعًا بين ما هو مستحيل ومن ينبغي أن يتمكّن من معرفته وإدراكه.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن تكون المناهج تدبّرية مقتصرة على الوقت الحاضر، بل ينبغي أن تكون تطلّعية، تستوعب الحاضر تدبّرا ولا تقتصر عليه؛ فالتدبّر لا يكون إلّا وفق الإمكانات المتاحة في الوقت الحاضر، أمّا التطلّع فهو البحث عمّا يُحدث النُّقلة إلى ما هو أفضل وأكثر ارتقاءً.

ولذلك؛ فالتّطلّع يُمكّن الإنسان من استقراء المستقبل وصناعته، ثمّ يمكّنه من تجاوزه ارتقاء، ومن ثمّ إذا أردنا معرفة المستحيل وبلوغه استحالة فلا ينبغي أن توضع إشارة قف، أمام التفكير العلمي لبني آدم. بل ينبغي أن نفكّر فيما نفكّر فيه حتى ننجزه عملًا متحقّقًا أمام المستحيل وآفاقه البعيدة الذي بوجوده بعيدا عنَّا يفسح لعقولنا مجالات التفكير فيه، والتمدّد تجاهه بلا موانع. أي: ينبغي أن نفكّر في كلّ شيء، وبكلّ حرّية

مقدّرة حتى نعجز، وحينها نعرفه مستحيلا، ولذا؛ فلا مستحيل قبل العجز، ومن ثمّ وجب البحث حتى بلوغ العجز الممكّن من معرفة المستحيل عن قرب، ولذلك خُلقنا.

ولأنّنا خُلقنا لذلك فينبغي أن نعمل والمستحيل نصب أعيُننا، حتى ندركه عجزا، وحينها ندرك أنّ الارتقاء إليه يمدّنا بالثّقة، حيث كلّ شيء ممكن حتى وإن كان غير متوقَّع.

ولأنّه المستحيل فهو لا يعيق العمل ارتقاء، بل الذي يُعيق العمل عن النّهوض وإحداث النُّقلة وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيّة الأخلاق وسُفلية التخلّف السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني، {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}[24].

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونية، ولكن لأنَّ الارتقاء والدّونية يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا؛ فهما بيد الإنسان رغبة واختيار، ولذلك ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما من شأنه أن يؤدّي بهم إلى إحداث النُّقلة الممكِّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاء.

وعليه:

فالفعل المستحيل لا يكون إلّا خَلقا؛ ولأنّه كذلك فلا يكون إلّا إعجازا إذ لا إمكانية لخلق الشيء شيئا إلّا بمشيء، وحتى أن عُدنا لذلك التّساؤل الذي كنّا نطرحه على انفسنا أيّام المراهقة والثانوية، وهو:

[24] الكهف 88.

من الذي خلق الخالق؟ وكيف كان قبل أن يخلق ما خَلق؟

أقول:

بما أنّنا نقول: الخالق، إذن: لا ينبغي أن نسأل عمّن خلق الخالق؟ أي: كيف لنا من زاوية نقول الخالق: ومن زاوية أخرى نسأل عنه؟ إنّه الخالق الذي يخلق ولا يُخلق، ومن ثمّ فكلّ شيء يُخلق فهو ليس بالخالق، ولذا فلا فواصل بين الخالق وخَلقه، فالخالق ليس على الصّورة ليكون موجودا قبل أن يخلق الخلائق؛ ولذلك فالسؤول ليس في محلّه؛ لأنّ السّائل جعل في ذهنه هيئة للخالق، وهنا تكمن العلّة، إذ لا هيئة للخالق، بل له مشيئة، والمشيئة هي فعل المستحيل، والتفكير في الفعل المستحيل يجعل السّائل في حيرة من أمره بعلّة في نفسه وهي: اختلاط فكرته عن الخالق الذي لا يُصوّر بما هو على هيئة الصّورة، وبالتّالي فمن يتصوّر لله هيئة يجعله وكأنّه داخل الإحاطة، ومن يفكّر داخل الإحاطة فتفكيره لا يزيد على كونه تفكير كتكوت داخل البيضة والذي لا إمكانية له في رؤية عالم أعظم من عالمه داخل البيضة، ولذلك فهيئة الله بلا هيئة، وصورة الله بلا صورة. ومن هنا؛ فنحن غير عاجزين عن معرفة الله، ولا يليق بنا أن نسأل عمّن بيده الأمر (كن): كيف كان؟

نعم، الله لم يكن، حتى نسأل عنه كيف كان؛ فمثل هذا السؤال يتعلّق بمن لم يكن فكان؛ كما هو حال الكون الذي كما يقولون عنه كان نتاج ذلك الانفجار العظيم سببًا، وكما هو حال الأزواج التي لو لم تكن الأرض كائنة ما خُلقت منها الأزواج سببًا، وغيرها كثير من الخلائق التي قبل خلقها لم تكن بخلائق.

ومن هنا؛ فلا ينبغي أن يكون السؤال: كيف كان الله؟

بل ينبغي أن يكون السؤال:

من الله؟

ما صفاته؟

فالله هو الذي يُسمّى بهذا الاسم، وهو الذي لم يكن كائنا، حتى يسأل عنه كيف كان، ولذلك فالكائن لا يكون إلّا على هيئة يراد له أن يكون عليها فيكون. وبالتالي فأيّ كائن لا يكون إلّا على هيئته ووفق مشيئة ليست بيده، ومن هنا فنحن ندرك الكون علما، ولكنّا لا ندرك هيئته، وكيف لنا بهذا ونحن لم ندرك صورة الكون متكاملة؟ أي: كيف لنا بهذا ونحن داخل محيط الكون الذي لم نتمكّن بعد من الخروج عنه بأيّ سبب، ومع ذلك يمكن لنا أن نتصوّر الكون باعتبارنا جزيئا فيه أو حتى أنّنا أقل من ذلك بكثير، أمّا الخالق فهو على غير هيئة كونه على غير صورة، وبالتالي لا إمكانية لوضعه في أيّ هيئة ذهنية، ولا يليق بعقولنا ومدركاتنا التي أدركته استحالة أن تجعله على هيئة أو صورة وهو لم يضع نفسه فيها؟

ومن ثمّ؛ فالله يخلق غيره، وغيره لا يخلقه، وبالعودة إلى السؤال:

كيف كان الله؟

فالله لا يكون.

ومن هنا، فالسؤال لا علاقة له بمن يُسأل عنه، بل له علاقة بالسّائل الذي لا يعرف من كينونته إلّا أنّه من نطفة ومن قبلها من تراب، ولا شيء غير ذلك، ومع ذلك يسأل: كيف كان الله؟

أي: ألا يكفي إجابة أنّه يعلم أنّه قاصر عن معرفة كيفيّة خلقه التي ليس له رأي فيها؟ ويسأل عن كيف كان الله؟

أقول:

عليك بالبحث في الكون بلا توقّف، لعلّك تعرف كيف خُلق؟ وكيف كانت له هيئة قبل أن يُخلق؟ ووفق أيّة مشيئة هو خُلق؟ وكذلك عليك بالبحث في نفسك لعلَّك تعرف كيف خُلقت؟، وكيف كانت لنفسك هيئة قبل أن تُخلق؟، ووفق أيّة مشيئة هي خلقت؟ وعليك أن تفكّر فيما تفكّر فيه قبل أن تتكلّم وتقرّر أو تعمل، فإن فعلت ذلك عن وعي لا شكّ أنّك ستدرك أنّ صفات الله تتعدّد بتعدّد نعمه، وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

الإعجاز

الإعجاز فعل تحدٍّ يتمّ الإظهار عليه، ولا يمكن فعله، أي: يمكن أنْ يُبيَّن لك المعجز وجودا، ولكنَّك لا تستطيع فعله، ولهذا فالإعجاز فعل الخالق مثله مثل المستحيل، غير أنَّ المستحيل خَلقُ الشيء من لا شيء وجودًا، أمّا الإعجاز فهو فعل ظاهر من شيء ظاهر، وهذه من واحدية الخَلق. ولا يكون إلّا من الواحد القهَّار، أي: إنَّ الواحديّة لا تكون إلّا إعجازا؛ إذ لا إمكانية للإتيان بمثلها، فهي المعجز تنزيلا، وغير المعجز فهمها واستيعابها، ولهذا فالإعجاز واحد، ولا يتعدّد وإن تعدّدت المعجزات، ولا يكون المعجز إلّا على أيدي الأنبياء والرُّسُل الكرام عليهم الصّلاة والسَّلام الذين اصطفاهم الواحد واحدا من بعد واحد.

إنَّ عملية إيجاد الشيء من الشيء تعدّ إعجازًا ونشوءًا حتّى وإن كان الشيء متناهيا في صغره لا شيئا. ولهذا فالإعجاز فعل ما لم يستطع

الإنسان فعله، أمَّا المعجز فهو الذي يكون بين يديك ولا تستطيع فعل شيء مثله، مثل الرّسالات الواحديَّة بين اليدين ولا أحدَ يستطيع أن يأتي بمثلها، قال تعالى: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}[25]؛ وهكذا المعجز مثل الأرض التي خلقت الأزواج منها، فهي أرضنا عيشًا، ولكنَّنا لا نستطيع خلق أزواج غير الأزواج منها.

وإذا سلمنا أنَّ الانفجار العظيم من تلك الذّرة فلا بدّ أن نسلّم بخلق الذّرة، ونشوء الانفجار منها، وإذا سلّمنا بخلق اللاشيء فلا بدّ أن نسلّم بنشوء الشيء منه إعجازًا، وإذا سلّمنا بخلق الأرض فلا بدّ أن نسلّم بنشوئنا منها إعجازًا، وإلَّا هل يمكن لنا أن نخلق منها ما هو معجز؟ قال جلَّ جلاله: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ}[26].

فإعجاز النّشوء لم يكن خَلق البذرة، ولا حتّى زرعها، بل ضرب جذورها في الأرض ونموّها لتكون وجودا مشاهدا بداية ونهاية، ونشوء النبتة إعجازًا يمرّ بمراحل نموّ من بذرة تُبذر، إلى بذرة تُجنى، {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}[27].

أمّا كيف وُجدت البذرة الأولى فلا أحد يعلم، ولا أحد يدّعي إيجادها، بل نبتت من الأرض مثلما نبت الإنسان منها، غير أنّ النبتة جذورها ضاربة في الأرض، أمّا الإنسان فقدماه ثابتتان على ظهرها وفقا لقانون الجاذبية.

---

[25] الإسراء 88.

[26] هود 61.

[27] الأنبياء 104.

فالبذرة لا أحد يظنّ أنّها الخالقة لنفسها كما ظنّ البعض بخلق الكون نفسه من لا شيء، ولكن من يسلّم أنَّ البذرة لم تَخلق نفسها فعليه بتصحيح تلك المعلومة الخاطئة التي كُتبت عن خلق الكون من غير خالق بمعلومة صائبة تؤكّد أنّ: (وراء كلّ مخلوق خالق).

فالنّشوء الخلقي إعجازًا نشوء تكاثر، وهو خلق الشيء من الشيء؛ فالخلق البشري الذي نشأ من آدم وزوجه أصبح كمًّا بشريًّا هائلًا يزيد تعداده على مليارات الست من البشر، أمّا تضاعف البذرة النباتية؛ فلا يحصى بيسرٍ، مصداقا لقوله تعالى: {كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ}[28].

ولأنَّ النّشوء تكاثر؛ فالإنسان الأوّل (الزّوجان) أصبح بعد نشوئه كمّا هائلا {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَذْكُورًا}[29]. أي: ألا يتذكّر الإنسان أنّه قبل أن يُخلق كان لا شيء، ثمَّ خُلق؛ فأصبح شيئا من زوجين، ثمّ تزاوج فتكاثر؟ ألّا يكفي هذا دليلا على وجود خالق لكلّ شيء؟

وعليه: فالنّشوء إعجازًا مؤسّس على خلق الحياة، ثمّ نشوء الأحياء، أي: لو لم تُخلق الحياة ما خُلق الأحياء، ولذلك؛ فكلّ من تُكتب له الحياة يُخلق على الهيئة التي تميّزه جنسا ونوعا، ومن ثمّ ينشأ كلّ مخلوقٍ وفقا لسلالته التي لا يمكنه الخروج عنها؛ فآدم وزوجه كونهما المخلوقين من تراب فسلالتهما من طين، أمّا بنوهما؛ فسلالتهم من نطفة، {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}[30]؛ ولذلك فمن أين جاءت الصّلة

---

[28] البقرة 261.

[29] الإنسان 1.

[30] السجدة 8.

بالقرود، آدم وزوجه ثمّ أبناؤهما (بشرًا سويًّا)؛ فلا إمكانية لعلاقة سلالية بين البشر والقرود.

فالنّشوء إعجازًا لا يكون إلّا من شيءٍ، فلو لم تكن الأرض ما كان نشوؤنا منها، ولو لم يكن اللاشيء ما كانت الأرض شيئا منه، ولو لم يكن الانفجار العظيم ما كان اللا شيء شيئا، وحتى تلك الذَّرة لو سلَّمنا بوجودها لو لم تكن ما كان ذلك الانفجار العظيم، ولو لم يكن الخالق ما خُلق شيء، {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[31].

ومع أنَّ الله خلق كلّ شيء وهو الخلّاق لما يشاء متى ما يشاء، وكيفما يشاء، وأين ما يشاء، فإنَّ البشر لا يعلمون كلّ ما خُلق؛ فهناك ما يعلمونه خبرًا، وهناك ما يأخذونه أمرًا ونهيًا، وهناك ما يدركونه عقلًا، وهناك ما يرونه مشاهدةً؛ فالبشر كما يسلِّمون يقينًا بما يعلمونه فهم يسلِّمون يقينا بما يجهلونه؛ فعلى سبيل المثال: المؤمنون يعلمون بالسّاعة، ولكنّهم يجهلون ساعتها، ويعلمون بالنّعيم ويجهلون نعمه، ويعلمون أنّ السّماوات والأرض كانتا رتقا ويجهلون كيفية فتقهما.

ومع أنّهم لم يكونوا شهودا لحدوث الانفتاق العظيم فإنَّهم واثقون من حدوثه، {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}[32]، أي: إنّه الحقّ في ذاته ولا شكَّ، قال تعالى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}[33]، إنّه العلم البيّن الذي أبلغ عنه ولم يتحقّق بعد، وهو سيتحقّق لا محالة، {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}[34]،

---

[31] المائدة 17.

[32] الواقعة 95.

[33] التكاثر 5.

[34] التكاثر 7.

إذ لا شكّ أنّ المستقبل آتٍ وسترون بأمهات عيونكم كلّ ما أُعلمتم به قبل أن تروه؛ وهكذا ستعلمون الحقائق، سواء أكانت معلومة أم مجهولة.

ولأنَّ الخالق خلق الشّيء واللاشيء؛ فخلق السّماوات والأرض أشياء، وخلق ما بينها اللاشيء، (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)؛ فما بينهما: هو ذلك الفراغ المملوء أشياء متناهية في الصّغر، وبتناهي صغرها توصف لاشيء.

ومع أنّ الخلق والنّشوء إعجازًا من مشيئة الخالق فإنَّ الخلق سابق على النّشوء ولا شيء قبله، أمّا المعجز نشوءا فلا يكون إلّا من شيء مخلوقٍ، فينشأ منه خلق آخر، مثل خلق الإنسان من الأرض، وكأنّه لم يكن منها. وهكذا حال الأزواج المخلوقة إنشاء مصداقا لقوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[35].

ومع أنّ المعجز نشوءًا مترتّب وجودًا على ما خلق، فإنَّه لا يكون إلّا وفقًا للمشيئة التي دائما سابقة على الشيء، أي: لا شيء ينشأ ويُخلق إعجازا إلّا من مشيئة الخالق.

ومشيئة المشيء إرادة خَلقية، خَلقت تلك الذّرة، وفجّرتها خلقا آخر، {وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[36].

ولذلك؛ فَخَلق الشيء من الشيء وجَعله على الهيئة والصّفة يعد نشوءا من مشيئة الخالق.

---

[35] يس 36.

[36] البقرة 117.

والنّشوء تكوين بنائي يُخلق على الهيئة والصّورة بغاية وظيفية؛ فالأرض التي خُلقت بناء مكوّرا، هُيّئت لوظيفة الإنبات والتكاثر والنّشوء والارتقاء، {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}[37].

فالإنبات في الأرض إضافة خلائق، ونشوء حياة، ولفت انتباه إلى ما يشبع الحاجات المتنوّعة والمتطوّرة بغاية بقاء الحياة إلى النّهاية دون حاجة.

فالنّشوء إعجازًا لا يكون إلّا من شيء، أمّا الخَلق فليس بالضرورة، أي: أنَّ الخلق الأوّل لم يسبقه خلق (خلق من لا وجود)، أمّا الخلق المترتّب عليه فهو النّشوء المعجز (نشوء الشيء من الشيء)؛ ولذلك فالنّشوء يتعدّد من الخلق الواحد أجناسا وأنواعا؛ فذلك الكون المرتق خلقا أصبح أكوانا منشأة انفتاقًا، وهكذا الأرض التي خُلقت خلقا مرتقا؛ فقد كان النّشوء منها متنوّعا ومتعدّدا (زوجين) من كلّ شيء.

وبما أنَّ المخلوق قبل أن يُخلق لم يكن شيئًا (لا وجودًا) إذن: فمن الذي جعله شيئا؟ وهل يمكن الحديث عن شيء لو لم يكن موجودا؟ وبما أنّه موجود، إذا؛ فمن الذي جعله شيئا؟

أي: لو لم يكن الشيء موجودا فهل يمكن أن يقال عنه قد خَلق نفسه من لا شيء؟ ولماذا لا يرتقي التفكير العقلي إلى معرفة من خلقه شيئا (وجودا)؟، ولماذا خلقه شيئا؟ بمعنى: لماذا لا يرتقي التفكير من المخلوق المشاهد إلى معرفة الخالق الذي لا يشاهد؟

ولذلك؛ فالعقل المتأمّل في الوجود الخلقي يدرك أنَّ وراء كلّ شيء مشيئا له؛ فلو لم يشأه ما كان شيئًا، وبما أنَّه أصبح شيئًا فهو لم يكن إلّا

[37] الشعراء 7.

وفق مشيئة، وهذه تستوجب: مقدرة خلقية، وخالقا يهيئ المخلوق للخلق قبل أن يخلقه، ومن ثمّ فلا شيء إلّا من مشيء، {إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}[38].

ولأنَّ خلق الشيء من الشيءِ يعدّ نشوءًا معجزًا، إذن: فلا نشوء إلّا والحياة تملؤه، فالأرض لو لم تكن على الحياة ما كان ترابها صالحا لخلق الإنسان، وإنباته مثل النبات نباتًا. إنَّه النّبات الذي من بعده لا تخلق الكائنات من الكائنات إلّا تزاوجا. أمّا نشوء الأكوان فلم يكن إلّا انفتاقًا.

المعجز:

المعجز نشوءا خَلقٌ من خَلقٍ، وإنبات من نبتٍ، ومُعجز قابل للنمو؛ فالخَلق كونه غير مسبوق هو الفعل المستحيل الذي لا يتحقّق إلّا أمرا ولذلك فالخَلق فعل يسبق المخلوق تحقّقا كما هو خلق الكون شيء من لا شيء يذكر، أمّا النّشوء: فهو الخلق ممّا خُلق إعجازا، كما هو خلق الأزواج من الأرض، ومن الأنفس، وممّا لا نعلم مصداقا لقوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[39].

أمّا النّمو في ذاته فلا يكون نموّا إلّا في ذات غيره نشوءا، إذ لا وجود للنّمو من غير شيء ينمو، فهو عملية ازدياد، كما هو ازدياد حجم الكون تمدّدا وسرعة، وكما هو ازدياد حجم الخلايا نموّا وضخامة، وكما هو نمو (نشوء) النبتة من بذرة إلى شجرة.

---

[38] الأنعام 30.

[39] يس 36.

ولذا؛ فكلّ شيء مؤسّس على الإعجاز ينمو إلى النّهاية (نهاية المكان أو الزّمان) الخاصّين بمن ينمو إعجازا (نضجا وعمرا)، وهذا الأمر ينبغي أن يُلفِتَ نظر الإنسان إلى نفسه كي ينمو قولا وعملا وإرادة وسلوكا، أي: يجب أن ينمو تذكّرا حتى يبلغ بداية الخلق وسرّ وجوده مستحيلا وإعجازا بهدف استجماع القوّة من التّاريخ المملوء بالمستحيلات والمعجزات، والتجارب، والقصص، والمواعظ والعبر التي تمكّنه عن تدبّرٍ من إنشاء شيء جديد يفوق ذلك الماضي ارتقاء، ومع ذلك فلا يقف عنده غاية؛ فالغاية بالنّسبة لمن تدبَّر أمره في حاضره ارتقاء، هي: بلوغ ما هو أعظم منه ارتقاء؛ ولهذا فعليه أن يفكّر فيما هو أعظم، وعليه أن يعرف أنّ بلوغه ممكن فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، مهما عمل من الأعمال الحِسان فهو يعلم أنّه بالإمكان بلوغ ما هو أحسن منها؛ ولهذا فلا ينبغي أن يتوقّف نموّا، بل عليه أن يعمل والأمل لا يفارقه، وعليه أن يعرف أنّ العمل ارتقاء وحده يطوي الهوة بين الأمل وصاحبه والحاجة المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة.

ولأنّ الخَلقَ هو فعل المستحيل يتحقّق إعجازا؛ فهو غير المتوقّف نموّا وازديادا، بل حاله من حال الكون المتمدّد تسارعا، ولذلك فالخَلق بلا انقطاع يحتوي نشوءا معجزا، والنّشوء بلا انقطاع يحتوي نموا، والنّمو بلا انقطاع يحتوي ارتقاء يحقّق الرّفعة في دائرة الممكن.

ولأنّ فعل المستحيل بيد الخالق فالخالق لو لم يفعل مستحيلا ما نشأ الخلق وجودا مُعجزا، وما أمكن للإنسان ارتقاء. إنّها حلقات متداخلة (خلق، نشوء، ارتقاء)، ولا يمكن أن تستقل حلقة عن أخرى؛ فحيثما كان الخلق كان النّشوء إعجازا، وحيثما كانا (الخلق والنّشوء إعجازا) كان الارتقاء، أي، لا ارتقاء بلا نشوء، ولا نشوء بلا خلقٍ، ولا خلق بلا

خالق، ومن هنا نميّز بين ما هو مستحيل إلّا بفعلٍ مطلق، وما هو نشوء إلّا بفعل معجز، وما هو ممكن إلّا بعمل واستطاعة.

فالنّشوء خلق من خلقٍ، وإنبات من نبتٍ، وإعجاز من معجز؛ فالأرض عندما كانت مرتقة في السّماء كانت بيئة صالحة للإنبات بلا تكاثر، وهذه هي النشأة المعجزة (الأزواج) كما هو حال نشأة آدم وزوجه من تراب، {وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[40]؛ فإنبات آدم وزوجه من الأرض كان ظهورا مشاهدا مثل النبتة بالتّمام، غير أنّ النبتة ذات جذور ضاربة في الأرض، أمّا آدم وزوجه فلا ضرب لهما في الأرض إلّا سلالة، ولهذا؛ فخطاهما تمشي عليها استقام قامة.

وهذا الأمر ينبغي أن يلفت نظر الإنسان إلى أهمية الأرض كونها الأم الأولى والوطن الأوّل، الذي فيه بنو آدم إخوة مختلفون، ولِمَ لا يظلون إخوة مختلفين؟ فالاختلاف مشيئة الخالق في خلقه وليس عيب أخلاق، بل العيب الذي ينبغي أن يُجنّب هو الخلاف الذي بأسبابه تقاتل ابنا آدم، حيث سيطرة الشّهوة والرّغبة الشخصانية على أحدهما؛ فأقصى أخاه، ثمّ قتله.

ولأنّها العلل المفرّقة بين الإخوة ألما فَلِمَ لا تُقبر بيدٍ واحدة، وعن قلبٍ واحدٍ؟، ويترك المجال ارتقاء لنشوء المودّة والتوافق بين بني آدم من أجل البناء نموّا يطوى الهوة بين الأرض والسّماء عملا لا اتكالية فيه من أحدٍ على أحدٍ.

ولأنّ النّشوء منبت الحياة نموّا معجزا فهو لا يتوقّف خَلقا؛ ولأنّه كذلك فَلِمَ لا يكون كذلك لا يتوقّف ولا يتخلّف على أيدي بني آدم

[40] نوح 17.

تعليما، وصحّة، وزراعة، وصناعة، وبناء وإعمارا، وإصلاحا، وغزوا للفضاء حتى بلوغ الحلّ الممكّن من بلوغ الجنّة نعيما وفردوسًا.

ولأنَّ العلاقة بين (الخَلق، والنّشوء، والارتقاء) علاقة ارتباطية فهي مثل علاقة (الأرض والبذرة والسّماء)؛ فالبذرة لو لم تُبذر أو تُغرس في الأرض ما نبتت ونمت على ظهرها ارتقاء في اتجاه السّماء وكأنّها تأمل بلوغها غاية.

ولأنَّ العلاقة بين الخَلق والنّشوء والارتقاء علاقة بين مستحيل ومعجز وممكن؛ فهي علاقة اعتمادية بين السّابق (الخَلق)، والتابع الإعجاز (النشوء)، واللاحق (الارتقاء)، ولذلك وجبت المعرفة على اللاحق لكلّ تابع لما قبله سابق، ممّا يجعل الماضي البعيد هو المستقبل بعينه، أي: لو كان أبونا آدم على قيد الحياة وسألناه: ما المستقبل المأمول؟ لقال: تلك الجنّة (ذلك الماضي الذي نشأ فيه ارتقاء قمّة ورفعة).

ومن هنا؛ فإنّ التفكير في المستقبل يربط المفكّر وما يفكّر فيه بالماضي المأمول، ومع أنَّ الزّمن في أذهاننا مقسّم بين ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ، فإنَّ التفكير تدبّرا في الوقت الآن لا يمكن أن يفصل مستقبل آدم المأمول عمّا نشأ فيه يقينا، ولذلك فالزّمن الحاضر كما يربطنا بما جرى ارتقاء يربطنا بما نأمل الارتقاء إليه، سواء أكان المأمول قد حدث في الماضي أم أنَّه سيعود إلينا ثانية.

ومع أنَّ خلق آدم وزوجه كان خلق قمّة في أحسن تقويم، فإنَّ آدم وزوجه انحدرا عن تلك القمّة باختيارهما، ومع ذلك عندما عرفا أنّ العلّة قد ألمت بهما وكانت من وراء انحدارهما هبوطا دونيّا (ندما واستغفرا لذنبهما) فتاب الله عليهما، ومن هنا نشأ لديهما أمل العودة إلى تلك

القمّة الماضية، وهي بالنّسبة لهما هي الأمل المفقود، ولكنّ هذا الأمل المفقود لا يمكن أن يبلغ إلّا بالعمل ارتقاء.

وهنا يتداخل الزّمن؛ فما يأمله آدم وبنوه المصلحون هو: تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم وزوجه، ولكن كيف تكون تلك الجنّة هي الماضي، وتكون هي المأمول ذاته في المستقبل؟

أقول:

الجنّة خُلقت وجودًا في الكون المرتق؛ إذ لا وجود للأيّام، بل هناك اليوم الواحد (اليوم الآخر) الذي لا وجود للظُّلمة فيه، ولا مجال للشّروق والغروب؛ ولأنّه كذلك فلا وجود للماضي والمستقبل، بل الوجود للحاضر ولا شيء غيره.

فالمخلوق عندما ينتهي من الوجود الحي ليس له من الأيّام إلّا الزّمن الحاضر، وكذلك عندما يُبعث حيًّا لن يجد شيئا مسجّلا إلّا في الزّمن الحاضر الذي وحده سيكون الشّاهد الأوّل على الأعمال ثقيلها وخفيفها.

ولذلك؛ فكلّ حياة الإنسان هي زمنٌ حاضرٌ، وكلّ ما يعمله الإنسان فيها ويتمّ استدعاؤه من الذاكرة لا يكون إلّا حاضرا في الزّمن الحاضر. أي: كلّ شيء يُفعل أو يُعمل لا بدّ أن تسجّله الحياة في صفحاتها حاضرًا.

فالزّمن دائرة، نقطة بدايتها تتمثّل في كلّ نقطة من نقاطها المتّصلة التي عندما يوضع الأصبع على أيٍّ منها تعد هي مركز منتصفها، وفي الوقت ذاته تعد نقطة نهايتها؛ وهنا يعد الزّمن كلّه حاضرا، أمّا الأعمال

في الزّمن فهي الشّاهدة على من يقوم بها، ولهذا يموت العاملون وتبقى أعمالهم حاضرة ولا وجود لماض يقبرها، بل الماضي يحفظها حاضرًا.

ولذلك؛ فالنّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ يعملون على إنجازها أو تحقيقها وبلوغ الغاية التي من ورائها، مع العلم أنّ الزّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام؛ وهذا يعني أنّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن تحقيقها ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنّ الزّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماضيا، وهو في الوقت ذاته بالنّسبة لإنجازها أو بلوغها لا يعد إلّا مستقبلا.

ومن ثمّ؛ فتلك الجنّة بمقاييس زماننا هي ماضٍ، ولكن إن سلّمنا بذلك ألا يعني أنَّ الماضي سيظل ماضيا ولن يعود؟ وإذا كان كذلك فلا أمل فيه؛ ممّا يجعل التسليم به وكأنّنا نقول: لا وجود للجنّة في المستقبل.

ولهذا فمن يعمل، ثمّ يزداد نموّا وارتقاء؛ فلن يبلغ جنّة غير تلك الجنّة التي هي حاضر آدم وزوجه، وهنا، أقول:

إنّ الماضي المأمول هو المستقبل بعينه؛ فمن شاء بلوغه فليعمل على مستقبل يربطه بالماضي ارتقاء، ولكن هذا لا يعني الاجترار، ولا يعني الالتفات إلى الوراء، بل يعني: التقدّم تجاه المأمول نشوءا وإبداعا منتجا لكلّ جديد مفيد يرتقي بالنّاس إلى تلك الجنّة، وحيث ذلك الماضي الذي خُلقت فيه الأزواج التي كان آدم وزوجه على رأسها في أحسن تقويم (قمّة).

فالزّمن متصّل بلا فواصل، وما يسمى بالماضي والحاضر والمستقبل لا تزيد على كونها فواصل من عندنا، وليس من عند الزّمن؛ فالزّمن هو الزّمن حاضرا، ولكن الأحداث التي تقع فيه تفصل بينها الأيّام التي بها

تُعد السّنون، وفيها تُصنّف الأعمال بين من ثقلت موازينه من أجل العودة إلى تلك الجنّة أملا وارتقاء، وبين من خفّت موازينه انحدارا؛ إذ لا أمل له في ماضٍ لم يأمله مستقبلا.

ولذا؛ فَخَلق الكون مُرتقا، ونشوء آدم وزوجه فيه ارتقاء، ثمّ انحدارهما منه والأرض هبوطا لا يلغي من دائرة الممكن أمل العودة إلى ذلك الكون متى ما تمّ رتقه كما كان أوّل مرة، قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}[41].

يُفهم من هذه الآية أنّ الخَلقَ والنشوء قد أوجدا كونا أوّلا (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، ثمّ أصبح الارتقاء فرصة، ولأنّه فرصة فلا ينبغي أن تضيع من أيدي من سُنحت لهم؛ ولهذا فأوّل المغتنمين لها استغفارا وتوبة كان آدم عليه السّلام؛ فتاب الله عليه بأمل العودة إلى حيثما كان عليه قمّة.

وبما أنَّ الارتقاء لا يكون إلّا حيثما توجد القمّة المأمولة؛ إذن: فلا ارتقاء إلّا إلى حيثما هي كائنة، ولأنّها قمّة كائنة وجودا فهي وجود سابق على من يرغبها أملا لاحقا ومن هنا فالزّمن ليس هو ما نأمله، بل الذي نأمله ما يحتويه الزّمن وجودا، ولذلك فالزّمن هو الزّمن؛ فحيثما كان الماضي يكون المستقبل حاضرًا.

ومن ثمّ؛ فالأهداف التي تصاغ في خِطّة بحثية في الزّمن الحاضر هي الأهداف المأمول إنجازها في الزّمن المستقبل الذي يوم أن تنجز فيه يكون هو الشّاهد (الحاضر) على إنجازها، كما كان هو الشّاهد حضورا يوم تحديدها وصياغتها.

---

[41] العنكبوت 20.

فالكون الذي كانت بداية الخلق منه حاضرة هو الكون الذي ستكون نهاية الخلق إليه حاضرة، أي: لا وجود لشيء إلّا في حاضرٍ؛ وبما أنَّ خلق الكون مُرتقا كان البداية، إذن: فالنّهاية لا تكون إلّا برتقه ثانية، (ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) النشأة التي لا يمكن لنا معرفة كيفيّتها؛ لأنّ أمر معرفة الكيفية الآخِرة مستحيل؛ ولأنّه أمر مستحيل فهو خارج دائرة الارتقاء إليه ممكنا.

ولأنَّه خارج دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فلا إمكانية لتصوّره، ولا إمكانية لمعرفة كيفيّته؛ ولذلك فسيظل المستحيل مستحيلا وإن علمناه مستحيلا، قال عزَّ وجلَّ: {وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[42].

أي: إنَّ نَشأة أخرى قد حُدِّدت وستأتي لا محالة، وسينشأ الخلق عليها بعد أن ينتهي الكون تمدّدًا وبأيّة علّة، والاستحالة هنا هي التي لا تكون إلّا ممكنًا بين يدي الله؛ إذ لا استحالة أمامه.

ومن ثمّ؛ فبنو آدم يعرفون أنَّ أساس النّشوء الآدمي هو من الأرض، وكذلك هم يعرفون أنّ الأموات يتحلّلون وينتهون فيها أثرا باليا، ويدركون أنَّ للحياة بداية ونهاية، ثمّ أنَّ للموت نهاية (موت الموت)؛ ولهذا فالمؤمنون يعرفون أنّ من بعد النّهاية بداية أخرى على كيفية أخرى، ولا تكون إلّا مستحيلا (وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ).

ولذلك؛ فلا نشوء خَلقيًّا مُعجز إلّا وفعل الخَلق يسبقه، ولا ارتقاء خُلقيًّا إلّا ونمو الخُلق منشؤه، ومن هنا فلا يولد الشيء المعجز إلّا من الشيء المعجز، وفي المقابل الخالق يخلق الشيء من لا شيء استحالة، كما هو استحالة خلق الكون وفتقه أكوانا.

---

[42] الواقعة 61.

ولأنَّ الخَلق هو فعل الوجود الأوّل؛ فالنّشوء من بعده وجود آخر مُعجز، ومع أنّه وجود آخر، فإنَّه لولا الوجود الأوَّل ما كان شيء آخر، ولذا وراء كلّ نشوء مُعجز نشوء من ورائه نشوء واستحالة، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[43]. أي: لو أجرينا مقارنة بين النّشوء الأوّل (الطّين) المعجز ثمّ (النّطفة) المعجزة، والنّشوء الآخر جنينا متكاملا معجزا فلا نشاهد علاقة، ولكن مشيئة الخالق شاءت أن تكون بداية النّشوء مرحلة قابلة للنّمو والارتقاء من حالة إلى حالة أخرى تختلف عنها مشاهدة.

ولذلك؛ فلولا الطّين ما نشأت الأزواج، ولولا الأزواج ما نشأت النّطفة، ولولا النّطفة ما كان المولود شيئا آخر، وهنا يصبح الخلق بين أيدي النّاس عجزا واستحالة.

ومع أنَّ بداية النّشوء لم تكن على الكثرة، فإنَّ نهايته لا تكون إلّا عليها؛ فالبذرة الواحدة نشوء تنتج أكثر من سُنبلة، وفي دائرة الممكن ارتقاء السُّنبلة تمتلئ بذورا متعدّدة، وهذا يجعل عدد البذور المنتجة من البذرة الواحدة مئات، ولذلك فالتكاثر يتضاعف نموّا وكثرة ليُسهم في إشباع حاجات الإنسان المتطوّرة مع تطوّره عددا ومعرفة.

ومن ثمّ، ينبغي أن يعمل بنو آدم كلّ ما في وسعهم من أجل تحسين حالات النّمو وتحسين أحوالهم إلى ما يجب بلوغه نشوءًا وارتقاءً؛ فالإنسان الذي يعلم أنّه في دائرة الممكن قادر على أداء العمل؛ فلا ييأس من بلوغ غير المتوقَّع نتيجة، ولأنّ دائرة الممكن لا تقتصر على المتوقَّع فقط؛ فلِمَ لا

[43] المؤمنون 12 . 14.

ينتبه الجميع ويعملون على تحقيق غير المتوقَّع تعليما، وإنتاجا، وعدلا، ورفاهيّة، وغزوا للفضاء حتى اكتشاف الأكوان طباقا واكتشاف ما يضاف إلى المعارف الممكّنة من إحداث النُّقلة.

ولأنَّ النّشوء الخلقي يؤسّس إلى نشوء مُعجز من بعده نشوء مُعجز، كما هو حال نشوء الأرض التي من بعدها نشوء الأزواج، تمّ نشوء التزاوج من الأزواج كثرة؛ فينبغي أن تكون هذه معطية تلفت العقل الإنساني إليها لينشئ من الأشياء أشياء أخرى تسهم في إشباع حاجاته المتطوّرة، إذ كلّما التفت الإنسان إلى الأرض معجزة اكتشف شيئا جديدا يمدّه بالمزيد المعرفي؛ فالأرض خامات وثروات ثمينة تملأ ظاهرها كما تملأ باطنها، فمن بلغها نشوءًا وارتقاءً معرفيّا تمكّن من تشييد المزيد نشوءا حتى معرفة المستحيل وبلوغه مستحيلا، وفي المقابل من تُلهه نفسه شهوة فلن يجد نفسه إلّا على حالة من الانحدار والدّونية التي لا تزيده إلّا تقليل شأن.

فالإنسان الذي خُلق على قمّة النشوء ارتقاء لو لم ينحدر بداية لكان إلى يومه هذا على قمّة الزّمن الحاضر في حُسن خَلقه وحُسن خُلقه، ولكنّ الغفلة قد أخذته فعصى ربّه؛ فانحدر إلى ما لا ينبغي، ثمّ حاول النّهوض، ولكنّه مازال يحاول وهو بين أمل ويأس أمل الارتقاء إلى ذلك الماضي، ويأس بلوغه بعلل الشّهوة التي لا ترى الأنا إلّا مركزا على حساب الغير.

وعليه:

فالنّشوء لا يمكن أن يكون صفرا، بل الصّفر هو نقطة ما قبل وجوده أو نموّه؛ فالنّمو لا يبدأ إلّا من نقطة الصّفر، ولا ينتهي قمّة إلّا إليها، حيث التوقّف عن النّمو ارتقاء، أي: عندما يبلغ النّمو نقطة لا ينمو من

بعدها شيء، تعدّ هذه النقطة صفرية إذ لا شيء من بعدها إلّا الاستحالة وهي النقطة التي لا شيء من بعدها إلّا الانحدار إلى نقطة صفر البداية.

النّشوء البشري إعجازًا:

يعد النشوء البشري النبتة الأولى التي لم تكن إلّا إعجازًا كونها خلقا من خلقٍ (خلق الأرض وخلق آدم وزوجه منها) ولهذا فأصل الخلق البشري من خَلقِ الكون؛ فلو لم يكن الكون لتكون الأرض منه، ما خُلق الإنسان من ترابها، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ}[44]؛ فالخلق من تراب بالرّغم من اختلاف المعتقدات والمعارف العلمية فلا أحد يشكّ فيه، وبخاصّة بعد اكتشاف عناصر خلق الإنسان التي من مكوّنات الأرض ترابًا، والتي كان من أكثرها نسبة الأكسجين 65%، ثمّ الكربون 18%، ثمّ الهيدروجين 10%، وتوزّعت بقية النّسب تكوينا في جسم الإنسان[45]؛ ولذلك لم يبق شيء يمكن أن يكون مكوّنا لجسم الإنسان إلّا وهو عنصر في الأرض، أمَّا أمر الرّوح فهي لم تكن من تراب، ولم تكن من مكوّنات الجسم الإنساني، بل هي المدخلة عليه إدخالا، مصداقا لقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[46].

ومع أنَّ أصل النّشوء البشري إعجاز من تراب، فإنَّ الخلق البشري لم يكن ترابا، بل كان شيئا على المعرفة الممكّنة من (التذكّر، والتدبّر، والتفكّر)؛ ومن هنا فالإنسان يتطوّر معرفة وليس جسدا؛ فالجسد أُنبت

---

[44] الروم 20.

[45] http://alelmwalmarefa.blogspot.com.eg/2014/04/blog-post_21.html

[46] الإسراء 85.

من الأرض نباتا، {وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[47]. فالآية تعود على البشر، ولأنّكم يا بني آدم من ترابها فأنتم نشأتم من الأرض وكأنّكم نبات من نباتها، وقوله (وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ) أي: أنشأكم من الأرض نشأة، ولأنَّ خلق الإنسان من الأرض، قال جلَّ جلاله: (أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) ولم يقل (إنباتا)؛ لأنّ (النبات) من الأرض، أمّا (الإنبات) فمن خارجها؛ ولأنّكم يا بني آدم من الأرض فكان نشوؤكم منها نباتا.

ولذلك؛ فهل يمكن لأحدٍ أن يقول: إنَّه لم يكن من تراب الأرض وعناصر تكوينه تشهد عليه ترابا؟ وإذا كان الأثر خير دليل لإثبات براءة أو إدانة صاحبه؛ إذن: لا شكّ أنّ عناصر خلق الإنسان من تراب خير شاهد على نشوئه منها.

تطوّر الإنسان إعجازًا:

لا شكَّ أنَّ المعجز لا يكون إلَّا من الخالق تعالى، ومع ذلك كان التطوّر على مراحل من الارتقاء الخَلقي والمعرفي لكي يدرك الإنسان المعجز والمستحيل ويسلّم بهما، ومن ثمّ يدرك أنَّه بإمكانه أن يعمل ما من شأنه أن يمكّنه من إدراك المزيد من المعجز والمستحيل حتى يزداد علما ومعرفته وارتقاءً.

وعليه: فإنَّ تَطوّرَ الوجود من لا شيء يُدرك إلى شيء مُدرك استفزَّ عقول العلماء بحثا بغاية معرفة الحقيقة، ومن هنا كانت معرفة علماء الفيزياء لتلك بالذّرة أو النّواة الأولى، ثمّ الانفجار العظيم الذي به أصبح الكون وجودا، والحياة تملؤه شيئا ولا شيء؛ فتكوّرت النّجوم والكواكب،

[47] نوح 17.

وكانت الأرض المكان المناسب لحياة الأزواج التي خُلقت منها خلقا، {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}[48].

ولأنّ الأرض مكان خلق الخلائق فكانت الأجناس والأنواع جمادا ونباتا وحيوانا وبشرا، وما لا نعلم خَلقٌ من تراب، ولكن لكلّ طينته التي تميّزه عن غيره وفقا لمشيئة الخالق، {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ}[49].

ومع أنَّ خَلق الإنسان الأوَّل (آدم) من ترابٍ، ف؟ فإنَّه لم يكن ترابًا، بل بشر في أحسن تقويم، هيئة وصورة وعقلا، {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ}[50]، أي: إنَّ الإنس الذي خُلق من طين ليس بطينٍ، وهنا يكمن الإعجاز الخلقي؛ فلو كان الإنسان طينًا لكان جدارًا.

ومع أنَّنا نتحدّث عن الإنسان الأوَّل (آدم) فإنّنا نشير به إلى الجنس البشري الذي من البدء كان خلقه على الزّوجية (آدم وزوجه)، مثله مثل بقية الخلائق كلّها خُلقت على الزّوجية الثنائيّة، ولا شيء خُلق على الفرديّة، (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)؛ ولذلك يصعب علينا الأخذ القاطع بما لم ينزَّل قرآنا، وهو: أنَّ حوَّاء من ضلع آدم؛ فكيف لنا بذكر حواء واسم حواء لم ينزل في القرآن ولا مرّة واحدة؟ بل قال القرآن (زوجك) ولم يقل (زوجتك)، ومن هنا فالفرق كبير بين المفهومين؛ فزوجك يشير إلى دلالة التسوية الخلقية من تراب، أمّا زوجتك فأمرها يعود كما يعود أمر خلقك إلى نطفة، {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ

---

[48] الذاريات 49.

[49] الحجر 19.

[50] ص 71.

الْجَنَّةَ}[51]، ثمّ أكّد أنّها (زوجك)، ولم ترد كلمة (زوجتك) ولا مرّة واحدة في القرآن أيضا مصداقا إلى قوله تعالى: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ}[52].

إذن: فخلق الإنسان إعجازا تطوّر من تراب إلى بشرٍ وكأنّه لا علاقة بالمشاهدة بين الصّفات الطينيّة، وصفات الإنسان التي خُلق عليها بشرا سويًّا، ولكن هذا التطوّر الخلقي نشأ الخلق عليه نشوءا، {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ}[53].

ولأنّه تعالى خَلق الأزواج كلّها، {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}[54]، وخَلق الإنسان من بينها في أحسن تقويم، إذن: فقد خَلقَهُ متميّزا ومتطوّرا عن بقيّة الخلائق ليكون على التطوّر إلى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، (أحسن صُنع، وأحسن قوام، وأحسن صورة)؛ فكيف يقال عنه: إنَّه حيوان متطوّر؛ فالحيوان وإن تطوّر فلن يكون إلّا حيوانا، وفي المقابل سيبقى الإنسان إنسانا وإن انحدر.

ومع أنَّ داروين لم يقل: إنَّ أصل الإنسان قرد، فإنّ الكثيرين نسبوا ذلك إليه، فداروين يرى شبها بين القرد والإنسان وكأنّهما ابنا عمومة، ولكن وإن التبس الموضوع عليه أو على البعض؛ فدائما المشبه غير المشبّه به؛ فأنت دائما غير أبيك، وأنا دائما غير ابني، وحتى التوأم لكلٍّ بصمته التي تميّزه عن الآخر؛ فما بالك بمن لم يكن من طينتنا ولا نحن كنّا من طينته.

---

[51] الأعراف 19.

[52] طه 117.

[53] هود 61.

[54] النبأ 8.

فالقرد لو تطوّر وأصبح إنسانا كما كتب البعض ما لم يكتبه داروين لانعدمت القرود من على وجه الأرض، وإن قبل من يقبل بذلك فهل يقبل بتطوّر القرد عند حدّ ما وصفوه به، أم أنَّه ينتظر تطوّرا آخر مجهول الهويّة والصّفة؟ وكيف للإنسان الذي يعلم بطينة خلقه، وحُسن تقويمه، أن يقبل الانتماء إلى طينة هي أقل شأنًا منه؟

إنَّ الخلق في أحسن تقويم هو خلق تميّز تفوّقي على كلّ المخلوقات، جنًّا وملائكةٌ، وكائنات أخرى، وإلّا هل هناك من ينكر اصطفاء أبينا آدم نبيًّا للملائكة والجن والإنس؟ {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[55]، أي: إنَّ الله تعالى قد فضّل آدم على الجميع، {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}[56]، والأسماء كلّها هي الأسرار التي لم يعلمها الملائكة من قبل حيث أسبقية خلقهم على آدم. {قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ}[57]؛ فآدم كونه النّبي أنبأهم بما أنبأه الله به، وهو (ما يعلمونه من قبل وما لم يعلموه). {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[58].

ولأنَّ آدم نبي سجد الملائكة له طاعة لأمر الله، (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا)، وإلّا هل هناك من يظن أنّ الملائكة أفضل من آدم؟ لو كان الملائكة هم المفضّلين عند الله على آدم لكان الرّكوع من طرف آدم وليس الرّكوع له طاعة لله تعالى.

---

[55] البقرة 30.

[56] البقرة 31.

[57] البقرة 33.

[58] البقرة 34.

وعليه: كيف يَقبل عقل الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وفضّله على الملائكة بأنّه قد تطوّر من كائن حيواني إلى بشرٍ؟ مع علمه أنّه قد خُلق في أحسن تقويم، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[59].

فالعالم داروين مع أنّه لم يجزم بقوله: إنَّ الإنسان والقرد يعودان لأصل واحد إثباتا، فإنَّه يظن أنّهما يعودان من خلال التشابه في بعض صفات الهياكل التي أخضعت للمقارنة البحثية.

ونحن نقول: السّلالات خُلقت خلقا مستقلا، ولكلٍّ خصوصيته؛ فلا الذّباب يصبح جرادا، ولا القمح يصبح شعيرا، ولا التفاح يصبح ليمونا، ولا الحمير تصبح خيلا، ولا الكلاب تصبح ذئابا، بل لكلّ سلالته، ولكلّ سلالة جيناتها التي تميّزها عن الجينات والسّلالات الأخرى. ومع ذلك؛ فإنْ تشابهت المخلوقات فالخالق واحد، ولكن التشابه لا يدلُّ إلّا على تباعد الخصائص، ووجود الاختلاف، إذ لا تطابق. ولهذا؛ فمهما تشابه المتشابهون فهم مختلفون.

وعليه:

هل يليق بنا أن نقول:

.كلّ من لديه معدة هو من أصل واحد؟

.كلّ ما له فقرات هو من جنس واحد؟

.كلّ من لديه جهاز تنفسي هو من نوع واحد؟

.كلّ من لديه عقل يعود إلى جدّ واحد؟

---

[59] التين 4.

فمع أنَّ العقل يميّز خلق الإنسان، فإنَّ كلّ الكائنات لها عقول ولها من الذّكاء ما يميّزها؛ فالطيور لو لم تعقل ما بنت أعشاشها، والنّحل لو لم يعقل ما نظّم علاقاته تنظيما رفيعا، والفئران لها من الذّكاء ما يتعب القطط، وتحايل الثّعالب يرهق الحرّاس، وذكاء الغربان تجاوز معرفة الإنسان، {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي}[60].

وكذلك مع أنَّ الخالق خَلق الإنسان في أحسن تقويم، فإنَّه لم يقصر حُسن خَلقه على الإنسان وحده، بل كلّ شيء خَلقه على الحُسن، فما يراه البعض على غير حُسنٍ، يراه البعض على الحُسن تماما، {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}[61]، أي: أتقن الله الحُسن في كلّ شيء خلقه، كونا ومخلوقات كونية، وفي مقدّمتها جاء خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثمّ كان الحُسن والجمال والزّينة في بقية الخلائق، {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}[62]؛ ولهذا فكلّ شيء خُلق على القانون الخلقي موزونا، ولا شيء يُخلق عبثا؛ {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[63].

ولأنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، إذن: لا يوجد مخلوق أفضل منه، ومن ثمّ فمن يُسلّم بالتطوّر الحيواني المزعوم ينبغي عليه أن ينتظر تطوّرا آخر، ولكن ليعلم أنّه لا أفضلية بعد خلق الإنسان الذي خُلق

---

[60] المائدة 31.

[61] السجدة 7.

[62] النحل 8.

[63] المؤمنون 14.

على الزوجية كغيره من الخلائق. {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}[64].

ومع أنَّ لنظرية داروين باعًا في علم النّبات والحيوان، وما قدّمته من مقولات تتعلّق بخلق الإنسان ونشوئه وتطوّره، لكن يظل للتقدّم العلمي كلمته في تغيير كثير من المقولات الداروينية، وبخاصّة التي ترى: أنَّ الفناء والهلاك للكائنات الضّعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القوية، وفقا لقانون (البقاء للأصلح)؛ إذ يبقى الكائن القوي السّليم الذي يورث صفاته القويّة لذريّته، وتتجمّع الصّفات القوية مع مرور الزّمن مكوّنة صفة جديدة في الكائن؛ وذلك هو (النّشوء المعجز) الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصّفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمر التطوّر ارتقاء[65]. ولا شكّ أنّ الضّعف والوهن لا يولّدان القوّة الفاعلة، ولا يجعلان بقاء صالحا، وأنّ القوّة المناعية المتوازنة تمكّن أصحابها من البقاء الأفضل، ولكن فوق هذا وذاك سيظل للتقدّم العلمي كلمته في تفادي الضّعف وتغييره إلى قوّة، وكما نعتقد سيكون الزّمن كفيلا بذلك. {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[66].

ومع أنَّ ما نظّر له داروين مؤسّس على البحث والتقصّي العلمي، فإنَّ تطوّر العلوم وصل إلى اكتشاف كثير من أسرار خريطة الجينات الوراثية، وبإمكانه تحسينها واستبدال المشوّه منها بما هو أرقى من أجل نشوء بشري وحيواني ونباتي خالٍ من العلل، وهكذا سيكون التطوّر من حسنٍ إلى أحسن، ومن أفضلٍ إلى ما هو أفضل منه، وبالتّالي في الوقت

---

[64] الشورى 11.

[65] تشارلز داروين، أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي)، ترجمة مجدي محمود، 2004، ص 154 – 157.

[66] الإسراء 85.

الذي فيه البيئة تُلوّث، فيه العلم يتطوّر حتى يمكّن من تطهيرها إن حَسُنت إداراته.

الحلقة المفقودة missing link:

مع أنَّ سلسلة التكاثر الخلقي متّصلة ولم تنقطع، فإنَّ معرفة الأثر المشترك الذي يعود إليه الجنس البشري ومن قالوا عنه الشبيه (الشمبانزي) لم يعثر عليه بعد، لتكون الإجابة حلقة ربط بين ما تمّ اكتشافه من معرفة، وما لم يتمّ اكتشافه، ولذلك فالحلقة ستظل مفقودة، وبخاصّة أنّ الطبيعة تتعرّض للزلازل والبراكين كما تعرّضت للطوفان (زمن نوح)، وهذه الحقائق من علل إخفاء الأثر التي على أثرها يمكن أن يظل حلقة مفقودة، أو أنّه يجيب على افتراضات من لا يرى إلّا ما يراه مشاهدة.

أمّا القول: إنَّ داروين قال: إنَّ أصل الإنسان قرد؛ فهو بحقّ لم يقله، ولكن الكثيرين ألبسوه قميصا غير قميصه؛ فهو لم يتحدّث عن الصّلة بين الإنسان والقرد إلّا تشابها؛ فمحتوى قوله: (يوجد شبه بين الأثر العظمي للإنسان والقرد، وكأنّهما يعودان إلى أصل واحد).

هذا القول حفّز البحاث على بذل المزيد من الجهد من أجل المزيد المعرفي، وبخاصّة أنَّ داروين لم يقصر رأيه على العلاقة التشابهية بين الإنسان والقرد، بل وسّع استنتاجاته بقوله: إنّ كلّ الفصائل لها جد مشترك (قديم)، ومع ذلك فما قاله داروين لا يزيد على كونه افتراضا محفّزا على مزيد من البحث العلمي والتقصّي الدّقيق.

ولكن، ما قاله داروين فتح بابا للتّحاور والنّقاش وتبادل الحُجج العلمية والمنطقية، وتبادل ما يتوافر من مسلّمات ودلائل يمكن أن تصحّح معلومات خاطئة بمعلومات صائبة، ومن ثمّ فلا احتكار للمعرفة، وبخاصّة

بعد اكتشاف خريطة هندسة الجينات الوراثية التي أضافت إلى معارف الإنسان ما لم يكن يعرفه من قبل، وبالتّالي يمكن من خلالها الوصول إلى مزيد من التفسير العلمي المؤدّي إلى معرفة الحلقة المفقودة، أو تسلسل حلقات الوجود الخلقي أجناسا وأنواعا وسلالات ولا حلقة مفقودة.

ولأنَّ الخالق واحد، إذن: فلا استغراب، ولا تعجّب من وجود التشابه بين خلائق الخالق.

ومن ثمّ؛ فحيثما يوجد التشابه يوجد الاختلاف، ولكلٍّ منهما أهمية: فأهمية الاختلاف حتى وإن كان أقل من 1%؛ فهو الدّليل على وجود الخصوصية والتميّز والتنوّع.

أمّا أهمية التشابه بين الكائنات والإنسان فستكون نتائج التجارب التي تجر عليها (على تلك الكائنات الشبيهة) ذات أهمية عظيمة على الإنسان، سواء من حيث اكتشاف الأمراض والوقاية منها، أم من حيث علاجها؛ فإجراء التجارب على الحيوانات المتشابهة جينيًّا مع الإنسان ذو فائدة على صحة الإنسان وسلامة بيئته التي تحوطه وتحتضنه.

ومع أنَّ التحدّث في السّابق كان عن وجود تشابه كبير بين الإنسان والشمبانزي، فإنَّ الدّراسات العلمية الحديثة أثبتت أيضا وجود علاقة كبيرة بين جينات الفأر والإنسان، وقد بلغت نسبة التشابه الجيني بينهما 99%، وهي بالتمام مثل النّسبة الجينية بين الإنسان والشمبانزي اللذين يشتركان في جينات متشابهة بنسبة 99% أيضا[67]، ولهذا ستتعزّز ثقة

[67] أميمة خفاجي، قضايا وآراء، جامعة قناة السويس، 24 أغسطس، 2003، العدد 42629.

الباحثين فيما يجرونه من تجارب مختبرية لدراسة الأمراض التي تلمّ بالبشر[68].

ومهما كان التشابه متقاربا في أيّ صفة من صفات الخلائق بين السّلالات والأنواع والكائنات فهو لا يعني تقاربا في كلّ الصّفات والخصائص؛ فالشمبانزي والفأر والإنسان وإن كان التقارب بينهم في الجينات الوراثية كبيرا جدا، سيظل الفرق بينهم واسعا في صفات أخرى، سواء أكانت صفة شكل، أم هيئة، أم معرفة، أم علاقة، أم ثقافة وحضارة، أم تذكر، أم تدبّر، أم تفكّر، أو حتى سكون وحركة، ولذا فلو كان للإنسان مئات الصّفات، وتشابه مع غيره من الكائنات الأخرى في عدد منها؛ فعلام يدلّ ذلك؟ بلا شكّ أنّه لا يدلّ إلّا على وجود اختلافات كبيرة.

ولهذا؛ فمهما تقاربت الصّفات بين الخلائق لا يمكن أن يتساوى البائع والمبيع، ولا يمكن أن يتساوى الصيّاد والطَّريدة؛ فالفأر سيظل فأرًا بعيد الصّفات عن صفات الإنسان، كما تبعد عنه صفات القرد الخاصّة به، ولكن هذا لا يعني تقليل شأن التشابه الذي تمّ اكتشافه في الجينات الوراثية بين الإنسان والفأر والقرد؛ بل ما ثبت من تشابه؛ فستكون نتائج تجاربه بلا شكّ ذات فائدة على الإنسان.

ومع أنَّ البحَّاث يسعون إلى مزيدٍ من البحث العلمي من أجل معرفة الحلقة المفقودة، فإنّ معظم المتشابهات المشتركة بين الإنسان وبقية الحيوانات متماثلة بالتّمام؛ فكلّها تتوالد وتتكاثر تزاوجا، وأجهزتها لا تختلف وظيفة؛ فالكليتان هما الكليتان وظيفة، والمعدة هي المعدة، والجهاز

---

[68] جريدة الشرق الأوسط الخميس 30 رمضان 1423 هـ 5 ديسمبر 2002 العدد 8773

التنفسي هو الجهاز التنفسي، والرّضاعة هي الرّضاعة، وهكذا بقية الحواس هي الحواس، والحمل هو الحمل، {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[69]، وغيرها كثير، ولذا فلا حلقة مفقودة بين المتشابهات، بل الحلقة المفقودة إذ لا إمكانية للتطابق.

ومع أنّ داروين قد بحث وفسّر، وفتح بابا أمام من يجتهد حتى يتمّ اكتشاف مصادر حلقات السّلالات النوعية، والجينات الوراثية للأجناس والأنواع، ولكن هذا لا يعني أن يُضرب بقول الخالق عرض الحائط وهو المنزّل للحقائق التي يتساءلون عنها قبل أن يخلق داروين الذي أصبح عنوانا في ميادين علوم الحياة.

فالله قال: {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[70]، فقوله: (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ) لم يستثنِ شيئا إلّا وقد خلقه على الزّوجية خلقا مستقلّا عن الأزواج الأخرى، ثمّ قال: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}[71]. إنّها عملية خلقية مُحكمة ومعجزة لم تترك ثغرة لنفوذ نوع إلى نوع آخر إلّا وفقا لسلالته، ولذلك لا تشويه لخلق الله، مع أنَّ البشر بإمكانهم التدخل للتّشويه الشكلي والظاهري، أمَّا الجينات وإن تمّ التلاعب بها، فإنَّها ستظل خاصّة مثل البصمة.

نشوء الأزواج إعجازًا:

خُلِقت الأزواج (الذَّكر والأنثى) خلقا إعجازيًّا فهم خلقوا من تراب، ولم يكونوا ترابا، إنَّه نشوء إعجازي تلازمي ومن تراب؛ قال تعالى: {وَمِن

---

[69] الزمر 6.

[70] الذاريات 49.

[71] الزمر 6.

آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ}[72]، خلقا تلازميّا ولا تفرقة، ولا أفضلية لمخلوقٍ على مخلوقٍ من ذات النّوع، فالإنس كونه سلالة طينيّة خلقه النوّعي واحد (الذّكر والأنثى)، ولذا جاء نشوء البشر من نفس واحدة (من طينة واحدة).

ولأنَّ الخَلق الأوّل زوجي؛ فلا أحد خُلق من أحدٍ، {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}[73]. ومع ذلك؛ فالبعض يتساءل:

وأين نحن من خلق حواء التي خُلقت من ضلع آدم؟

عندما تكون الإجابة من الله تعالى قاطعة للشكّ فلا داعي لغيرها، وعندما يختلف قول البشر عن قول الله؛ فلا مجال للظنّ، فكيف الله يقول: (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)، ويأتي البعض ويقول: خُلقت حواء من ضلع آدم؟

فقوله من كلّ شيء، لا يستثني شيئا من الخلق الزّوجي، فكلّ المخلوقات خلقت على (الزوجيّة)، ولم تخلق من (التزاوج)، فالتزاوج اختياري وهو الذي حصل بعد الخلق الأوّل للإنسان الأوّل، {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[74]؛ فمن نفس واحدة، تعني: من طينة واحدة، أي: من نفس الطّينة؛ فلا أحد أفضل خلقًا من الآخر، {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}[75].

---

[72] الروم 20.

[73] الذاريات 49.

[74] الأنعام 98.

[75] النساء 32.

إذن: فـ(من نفس واحدة) تدلّ على وحدة الخَلق الزّوجي، ولا تدلّ على أسبقية آدم على زوجه، ولذا فكيف لنا بأخذ القول: إنَّ زوجه قد خُلق من ضلعه والله يقول: (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ)؟

ومع أنَّ النّشوء البشري إعجازي من نفس واحدة، وهي: (الإنس) فإنَّ لكلٍّ نفسه، {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}[76]، أي: جعل الأنفس من بعد آدم وزوجه أنفسا متعدّدة؛ فبعد ذلك النّشوء الزّوجي من طينة واحدة (النّفس الواحدة)، وهي طينة خلق (الإنس)، أصبحت الأنفس تتعدّد ولادة وسلالة زوجية، {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}[77].

تبيّن هذه الآيات تطوّر النّشوء البشري بداية ونهاية؛ فبداية كانت السّلالة الخلقيّة من طين، والسّلالة هنا النّوع ذو المعدن الثّمين؛ ولذا فسلالة نشوء البشر جاءت نوّعا متميّزا عن بقية السّلالات، أي: إنَّ سلالة نشوء الإنسان الأوّل (آدم وزوجه) سلالة طينية (تراب). ولكن أيّ تراب؟ إنَّه الصّلصال، وهو أجود أنواع الطّين الخَلقي، {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}[78]، والصّلصال لم يكن فخارا، بل يشبهه؛ فجاء التشبيه لتقريب المعني والتعريف بالمشبه (كَالْفَخَّارِ)، ومن ثمّ فقد ارتبط الصّلصال بالنّوعيّة الرّاقية والجودة الرّفيعة.

---

[76] الشورى 11.

[77] المؤمنون 12 . 16.

[78] الرحمن 14.

نشوء التزاوج إعجازًا:

التزاوج ثنائية الأفراد المستقلّين (آدم وزوجه)؛ فكان النّشوء من بعدهما ليس خلقا مباشرا كما هو خلقهما من نفس واحدة؛ فهما وإن خُلقا على الفردية، فإنَّهما من طينة واحدة (نفس الطّينة) نفس واحدة.

أمّا التزاوج: فهو التقاء توافقي نتج عنه نشوء وسلالة ليست من طين، {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِن مَاءٍ مَهِينٍ}[79]، والماء المهين هو من معجز، أي: من نطفة، {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}[80]، فالخلق الذي جاء بالإنسان الأوّل انتهى بوجود (آدم وزوجه) ثم نشأت سلالة خلقية مبذورة من صلب الإنسان الأوّل، وهذه السّلالة لم تكن من ذلك الطّين (التراب) الذي خُلق منه آدم وزوجه في أحسن تقويم، وهذه معجزة أخرى لا يقدر عليها إلَّا من بيده الفعل المستحيل الذي خلق الشيء وخلق منه أشياء.

وكيف لا يكون الإنسان في أحسن تقويم، وهو المخلوق في الجنّة من صلصال كالفخار؟ فهذه لا استغراب فيها، ولا مفاجأة، ولكن الاستغراب: لماذا لا يحافظ من خُلق في أحسن تقويم على حُسن تقويمه؟

ومع أنَّ نشوء السّلالة الجديدة كان بذرة (نطفة)، لكنّه لم يبق بذرة (نطفة)، (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)، حيث دبّت الحياة من زوجيّة مشتركة في علقة مشتركة تخصيبا. (فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً) أي: أصبحت السّلالة تتكوّن دما ولحما، ثمّ عظاما (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا)، ثم كسيت العظام لحما بدنيّا على صورة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا)، حيث اكتمال الخلق نشوءا على صورة أخرى، وكأنّه

---

[79] السجدة 8.

[80] المؤمنون 13.

مشاهدة لا علاقة له بالمراحل الخلقية السّابقة، {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ}[81].

أي: إنّ السّلالة البشرية ستظل بحكم قانون الوراثة جينات ثابتة بداية ونهاية (بداية خلقية ونهاية عدمية)، بمعنى: سيكون أثر السّلالة البشرية بداية من النّطفة ونهاية بالأثر ولو كان رفاتا ترابيًّا؛ فاليوم أصبح البحث العلمي متقدّما في اكتشاف الأثر الجيني والوراثي الذي يبقي الجنس والنّوع والنّسب دون لبس ولا غموض.

ولذا؛ فلا إمكانية لتطوّر الكائنات لتكون خارج الجنس أو النّوع الذي خُلقت عليه خلقا، وبخاصّة بعد اكتشافات (DNA) التي تحمل معلومات وراثية (المورثات والجينات)؛ ومن ثمّ فلو كان القرد ابن عمّ الإنسان كما يقول داروين فهل سيظل هذا سرّا أمام معرفة DNA لكلّ من الجنسين؟

وعليه:

خُلقت الحياة أزواجا، ونشأت الحياة تزاوجا، فكانت الحياة مكوّنة من (وجود وعدم) حيث الموت في ملاحقة الحياة؛ ولكلٍّ أسبابه كما هو حال ابني آدم، اللذين كان الصّراع بينهما صراعا بين حقّ وباطل، {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ}[82]. ومن هنا، بدأ النشوء مرحلة جديدة بين زيادة ونقصان (مواليد وأموات).

---

[81] آل عمران 34.

[82] المائدة 30.

ولكن دائما التزايد أكثر من النقصان، وبخاصّة بعد الرُّقي العلمي، ومقاومة الآفات، إذ أصبح متوسط الأعمار ناهضا عمّا كان عليه في سنوات الانحدار العلمي.

وهكذا سيظل التحسّن البيئي والغذائي والمناعي من عوامل البقاء الرّئيسة، شريطة أن يسود السّلام المخرج من تلك المأساة التي حدثت بين ابني آدم، اللذين أصبح الخلاف من بعدهما يدبّ بين الإخوة والأقارب والأباعد على القيم والفضائل والحاجة، والمكانة والمصلحة. وبالتالي؛ فالوجود الذي كان في أحسن تقويم بقاءً، أصبح نشوءا متأثرا بهذه العلل فُرقة وخلافا واقتتالا، عوضا عن التّعاون المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة من أجل الارتقاء والبقاء الأصلح.

فبعد تلك السّابقة المؤلمة بين ابني آدم أصبح البقاء للأصلح قوّة، بدلا من الأصلح قيمة أو فضيلة، ما جعل النّشوء البشري معرّضا للتهلكة والفناء أكثر من تعرّضه للبقاء ارتقاء.

إنّ غِلظة القلوب على القلوب تنزع بالبشر إلى نشوء منحدرٍ ترتفع فيه أسهم السّلاح أكثر من ارتفاع أسهم القيم الإنسانية، ولكن مع ذلك ستظل المعلومات الصّائبة تصحح المعلومات الخاطئة.

فعلى المصلحين أنلَّا يستغربوا ما يجري من انحدار نشوءٍ بين البشر، لأنّ حقيقة البشر بين مهتدٍ وضال، ومستقيم وسقيم، وعادل وظالم، وفقيه وجاهل؛ ولذلك قال تعالى: {أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}[83]، {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[84]، {أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}[85]. وغيرهم من الكثر كثير.

---

[83] الأنعام 111.

[84] الحجرات 4.

[85] المائدة 59.

ومع أنَّ الخَلق البشري كان في أحسن تقويم، فإنَّ نشوء الكثرة أصبح على غير هذه القاعدة القيمية، ومن ثمّ أصبح النّشوء منحدرا من منصّات القيم الحميدة والفضائل الرّفيعة إلى سُفلية الوجود التي جعلت بعض العلماء والمنظّرين يصفون ما يشاهدونه ويلاحظونه من انحدار قيمي بأنّه ميل الإنسان إلى الحيوانية على حساب البقاء الأصلح والنّشوء الرّفيع، ممّا دعاهم إلى البحث عن آثار الإنسان الأوّل لعلّه لم يكن إنسانا.

وباكتشافهم وجدوا معطيات أثرية لهياكل عظمية بشرية تدلّ على أنَّ الإنسان القديم كان أقل رُقِيًّا من الإنسان المعاصر، كما أنَّ نظرية Origin Of Species ترى: أنَّ "أشكال الحياة المختلفة تعود إلى أصل واحد مشترك وأنّها بدأت من خلايا حيّة تكوّنت عن طريق المصادفة وأنّ الحياة الأولى وجدت مصادفة"[86].

ولكن كيف لنا بقبول خلق الكون بأسره من لاشيء، ثمّ الأخذ بالقول: إنّ الحياة الأولى وجدت مصادفة؟

وكيف لنا بقبول المصادفة وأنّ الله خلق الأزواج كلّها خلقا (لا مصادفة)؟

ومع أنَّه حتى الآن لم نجد آثارًا مؤكّدة للحيوان الذي انحدر منه الإنسان والقرد الشبيه كما يزعمون، فإنَّ البعض يرى صلة سلالية تربط الإنسان بالقرد، وهذه لا حقائق تسندها؛ فهي مجرّد قولٍ ليس إلّا، وهذا ما أكدّه العالم جوهانس ووكر عام 1956م الذي أعلن عن اكتشاف قطعة فحم حجري بها فكّ إنسان يرجع إلى عشرة ملايين عام، وهي أقدم قطعة من بقايا الإنسان في العالم، وتعد دليلا شاهدا على ذلك

---

[86] Charles Robert Darwin Origin of Species the Harvard Classics. 1909 p 114.

بمتحف بال بسويسرا، ومن ثمّ، قال العالم جوهانس ووكر: إنّه لا يوجد أدنى دليل على أنَّ الإنسان من سلالة القردة.

أمَّا داروين فيقول: بالرّغم من أهمية الأحافير في إيجاد دليل على حدوث التطوّر، فإنَّ السجلّ الجيولوجي أشبه ما يكون بكتاب فُقدت بعض صفحاته، ولم يبق منه سوى صفحات قليلة متناثرة، وفي تلك الصّفحات الباقية لم يبق إلّا كلمات قليلة في كلّ صفحة[87]. ولهذا؛ فلا يقين فيما يقال أو يدّعى به من تشابه سلالي بين الإنسان والقرد.

ولأنّه لا يقين، إذن: فلا حكم على وجود علاقة نشوء بين الجنسين (الإنسان والحيوان) لتعود بهما إلى أصل واحد، ولا أحد يستطيع أن يفصل في شيء بغير حقيقة، ممّا يجعل الشكوك والادعاءات ليست بحجج، {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}[88].

ولأنّ الخلق الأوّل للكائنات خَلق زوجي، فهو خلق أجناس وأنواع، ولم يكن خلق تكاثر إلّا بعد التزاوج (الثنائية المتعدّدة) التي لا مجال فيها للنّشوء والتطوّر إلّا داخل الجنس الواحد، فالإنسان كونه أرقى المخلوقات لا يمكن له أن يتطوّر ليكون على غير جنسه البشري، ولا يمكن لغيره من الأجناس والأنواع الأخرى أن تتطوّر لتصبح بشرا؛ ولذلك فقد خلق الخالق من كلّ شيء زوجين ولا لبس ولا شبه ولا تداخل، فكلّ اثنين (ذكر وأنثى) من كلّ شيء، حتى الفواكه لا تعود لسلالة واحدة، بل تعود إلى سلالات متعدّدة الأزواج، {مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ}[89]. أي:

---

[87] تشارلز داروين، أصل الأنواع، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ص 538 . 571.

[88] الأنعام 57.

[89] الرحمن 52.

أنّ الفاكهة لا تعود إلى زوجين بعينهما، بل تتنوّع الفاكهة أزواجا وسلالات مختلفة وستظل متنوّعة.

وعليه:

كيف يَقبل العقل البشري أنّ الإنسان والقرد يعودان إلى سلالة واحدة، وهو في ذات الوقت يعلم أنّ الفاكهة التي يظنّها من سلالة واحدة هي ليست كذلك؟

ومن ثمّ؛ فالكائنات تتكاثر أنواعا، ولا تتطوّر أجناسا، فالقرد الذي خُلق قردا سيظل على ما هو عليه قردا متميّزا بما ميّزه الخالق؛ وهكذا النّباتات ستظل نباتات، والإنسان لم يكن قردا وسيظل إنسانا، ولكن الإنسان لا بدّ أن يرتقي ويتطوّر على القيم الحميدة والفضائل الخيّرة، ولا ينبغي أن يغترّ معرفة وعلما، {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[90]. أي: فعلى الإنسان أن يعلم أنّه لم يؤت من العلم إلّا القليل.

ولهذا؛ فالتطوّر ضرورة لحياة الأجناس من أجل البقاء الأحسن، والنّشوء سيظل قابلا للتّحسين النّوعي من أجل الأفضل والأجود، ولا شكّ أنّ الإنسان الذي بين يديه المعارف، على يديه تتحقّق النُّقلة النّافعة، التي تمكّنه من البقاء الأصلح.

فالإنسان الأوّل مع أنَّه خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه لن يبلغ الكمال؛ فهو المخلوق على الحاجة المتطوّرة وإن حَسُن تقويمه، ومع ذلك وإن تيسّرت مشبعات حاجاته المتطوّرة كما تيسّرت لأبينا آدم (الإنسان الأوّل) يظل للرّغبة مؤثراتها، وللمعلومات الخاطئة تأثيراتها السّلبية على

[90] الانفطار 6 . 8.

النّشوء والارتقاء البشري، {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}[91].

إذن: فعندما تأتي المعلومة الخاطئة، وممّن تأتي؛ فهي المؤدّية إلى ما يسيء للخَلق الإنساني، أي: متى ما حلّت بين النّاس المعلومات الخاطئة حلّ الفساد ديارهم، وساد بينهم الانحراف، ولهذا دائما المقدِّمات الخاطئة تؤدّي إلى نتائج خاطئة.

ومع أنَّ الوسوسة كانت لأبينا آدم كونه النّبي الذي أنبأه الله بما لم ينبئ به الملائكة، ولكن الأكل من الشّجرة المنهي عنها كان من أبوينا معا (آدم وزوجه) اللذين أكلا منها؛ (فَأَكَلَا مِنْهَا).

ولأنَّ ما حدث معهما هو درس لهما ولمن حولهما (ملائكة وجنًّا)؛ فهو الدّرس الباقي لمن يأتي من سلالتهما من بشر، فمن يتّعظ يتجنّب المنهي عنه، ويمتنع عن المحرّم والمجرّم، ومن لا يتعظ سيكون الثّمن لا مقدرة على دفعه والزّمن كفيل بذلك، وحتى لا يغفل النّاس عمّا يجب، بعث الخالق الأنبياء والرّسل منذرين ومبشرين ومذكرين، {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[92].

وعليه:

فلا كمال للنّشوء الزّوجي (نشوء الجنّة)، ولا كمال للنّشوء التزاوجي (نشوء الحياة الدّنيا)، بل الكمال لله وحده؛ فالنّشوء بنوعيه هو نشوء حاجة، غير أنّ النّشوء في الجنّة نشوء مشبع على التمام، أمّا النّشوء

---

[91] طه 121 . 122.

[92] الغاشية 21.

الدّنيوي فهو نشوء الحاجات المتطوّرة التي يحفّها العوز بين الحين والحين، ولذلك فالحياة الدّنيا ستظل على الحاجة التي كلّما نقصت جعلت عدد المطالبين بما يشبعها متزايدا، وكلّما اشتدت عوزا جعلت من البقاء عدما.

ومن هنا، ترتبط مصائر البشر بالحاجات ومشبعاتها، ولا بقاء صالح لمن خُلق في أحسن تقويم ما لم تكن مشبعات الحاجات المتطوّرة متطوّرة، ومن يتحكّم في مشبعات الحاجات المتطوّرة، يتحكّم في مصائر البشر، ومن ثمّ، تصبح آلام الحاجة وضرورات البقاء محفّزة على التمرّد والمواجهة مع قبول دفع الثّمن من أجل الحياة.

الوجود

الوجود دليل إثبات؛ لأنَّه الشَّاهد على نفسه، أي: الوجود لم يكن في حاجة لمن يثبت وجوده، فوجوده يكفي إثباتا؛ ولهذا فالموجود ليس في حاجة لأن يبرهن على وجوده، فهو مهما برهن من حجج وأدلة، لا يمكن أن تكون أعظم من امتثاله بين المشاهدين شاهدًا، وهذه الرؤية المنطقيَّة لا تأخذ ما قاله الفيلسوف الفرنسي ديكارت: (أنا أفكر، إذن: أنا موجود) إلَّا من زاوية تحاور النفس مع النفس ذاتها، أمَّا غير ذلك، فالذي يسأل عمّا يثبت وجوده فهو لو لم يكن موجودا ما سأل من سأل.

وعليه:

فالوجود إجابة عن الوجود، وإلَّا الموجودات التي لا تجيب بما يثبت وجودها لغة (حُجَّة) هل عدم مقدرتها على الإجابة يدلُّ على أنَّها غير موجودة؟ أي: النجوم والكواكب والمحيطات والبحار والأنهار والأشجار والبراكين التي وجودها جزءٌ من الوجود الكوني لا تعد موجودة لا لعلّة إلَّا لأنَّها لا تجيب على فعل الأمر: (أَثبِت وجودك)!

ومع أنَّ المقصود من فلسفة: (أنا أفكر فأنا موجود) ترشد إلى أنَّ الوجود يجب أن يكون فعَّالا ومؤثرا تأثيرا إيجابيا وإلَّا لا داعي لوجوده، فإنَّ الوجود شيءٌ والتأثير شيءٌ آخر، فالمعاقون وكبار السن والأطفال والعجزة هم في حاجة لمن يثبت وجودهم بإشباع حاجاتهم بالرّغم من وجودهم؛ ولهذا لا داعي لتعميم هذا المطلب أو النظرة أو الأمر: (أثبت وجودك وإلّا لا تعد موجودا)، فالبراكين موجودة وإذا ثارت ألا يكفي ثورانها الذي ينهيك إلى الأبد أو يبعدك خوفا وتجنُّبًا دليل إثبات وجودها؟ وهكذا قوّة المحيطات والبحار والزلازل والنَّار وغيرها كثير.

ومع أنَّ دلالة الوجود وماهيته واحدة، فإنَّ مقاصد الباحثين في ميادينه تختلف باختلاف الثقافات والمعارف والانتماءات العقدية؛ فما يراه البعض وجودا قد لا يراه البعض كذلك (فلاسفة وعلماء)، وبين هذا وذاك؛ فالوجود لا يكون حيث لا وجود، فهو يشغل حيّزا وإن كان متناه في الصّغر (ماديّا أو معنويا).

فالوجود إثبات لا يكون في حاجة لمثبت؛ فالصّمت الذي هو امتناع عن الكلام بإرادة يعدّ إثبات وجود، وفي المقابل الجبال تعبّر عن وجود راسٍ على الأرض المتحرّكة وجودا، وهكذا، الحقّ وجود في مقابل وجود الباطل، وكلّ شيء نعترف به أو ننكره نثبت وجوده. وإلّا هل يمكن لنا التحدّث عن شيء (إثباتا أو نفيا) لو لم يكن موجودا (وجودا) مشاهدا أو مدركا وملاحظا؟

فالكون العظيم خُلق وجودا مرتقا، ثمّ فُتق أكوانا نعلم وجودها ولا نعلم سرّها سوى شيء من كوننا الذي يرشد إليها وجودا.

ومع أنّ الفيلسوف سارتر قد ميّز بين الوجود وأسبقيته، والماهية ولاحقيتها، لكنّ رؤيته الفكرية ربطت الوجود بالفاعلية والحرّية، وكأنَّ من لا يدركهما لا وجود له.

وهنا أتساءل:

هل يحقّ لنا ألَّا نحسب وجودا للكون المرتق الذي وجدت منه الأكوان المفتقة والأرض التي دُحِيتْ منه وما فيها وما عليها من أنهار وجبال وكائنات كونها لا تمتلك مدركات الحرّية وفقا لمعرفتنا؟

وبما أنَّ الوجود يشغل حيّزا، إذن: فلا إمكانية لإنكار ما يشاهد أو يلاحظ وجودا (وجود حياة، أو وجود أثر)؛ فالوجود: يحتوي على الدّلالة

كما يحتوي على الكينونة (الماهيّة)؛ إذ لا ماهية إلّا لوجودٍ. أي: لو لم يكن الوجود بفعل فاعلٍ ما كانت الماهية بإرادة المفعول المخيّر في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

فالوجود لا يكون إلّا عن قوّة وإرادة فعّالة، ممّا يجعل مشيئة الوجود بيد الموجد بالقوّة، والقوّة الفعّالة يمكن أن تكون مطلقة، ويمكن أن تكون نسبية ممكنة؛ فالخالق يخلق بالقوّة المطلقة، والصّانع يصنع بالقوّة النسبيّة؛ ومن هنا فالإنسان يمتلك القوّة التي تستوجب حُسن تصرّف، فإن كان التصرّف عن إرادة حرّة، كان الإنسان مسؤولًا عن تصرفاته سلبا وإيجابا، ومن ثمّ؛ فالتسيير مطلقا بالقوّة، والتخيير نسبيا بالإرادة وفقا للمقدرة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

إنَّ الوجود شيء لا يخفى وإن قصر البعض عن إدراكه؛ فهو عظيم في تناهيهِ كبرا وصغرا وتوازنا، وسيظل الوجود نكرة إلى أن يُدرك ويعرّف صفة وخاصيّة ومفهوما ومعنى.

فالوجود خَلقٌ بفعل الخالق؛ فلو لم يكن الخالق ما كان للوجود وجود، وأوّل وجود نعلمه، هو: وجود الكون المرتق، ثمّ الانفتاق العظيم الذي جعل من الكون المرتق أكوانا مفتقة بُعثت فيها الحياة وجودا متكاثرا بغاية خلقية لا يدركها إلّا الخالق، ولكن في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لكلّ متدبّر وجودا يدركه في دائرة (السلبية والإيجابية) وخير المتدبرين الذين يمتلكون الحرّية ويتصرّفون عن إرادة بلا مكاره.

ومن ثمّ؛ فالوجود نشوء يتولّد خلقا بعضه من البعض، كتولّد الأكوان من الكون المرتق، وتولّد الأرض من كوننا الذي يملؤه الوجود بالقوّة الخلقية، ثمّ نشوؤنا من الأرض وإنباتنا منها نباتا.

والوجود ارتقاء إنساني (ثقافة، وفكر، وعلم، وخُلق، وذوق) به يتميّز الإنسان (قيمة في ذاته) عن بقية الوجود الواسع، سواء أكان مدركا لما حوله عن إرادة حرّة، أم أنّه يجهل أمره؛ فهو في كلا الحالتين الإنسان الذي خُلق وجودا في أحسن تقويم؛ ومن هنا، وجبت رعاية القصّر والمعاقين والعجزة والمرضى، كما وجب الإصلاح والتغيير للأفضل من أجل من خُلق في أحسن تقويم.

وعليه:

فالوجود الإنساني في أساسه وجود منتج متطوّر ارتقاء، ولكن بعلل القصور وأسبابه المختلفة جاء الاستهلاك وفقا للحاجات المتطوّرة استثناء. ولهذا؛ فالوجود الإنساني ينبغي له أن يكون دائما في حالة ارتقاء، من خلال تطوّر الحاجات وتنوّعها وضروراتها التي تستوجب التدبّر تفاديا للانحدار والهلاك.

ومع أنَّ الوجودية كما يرها سارتر تنادي بمبدأ أسبقية الوجود existence على الماهية essence، لكنّنا نقول: لا الدّجاجة أسبق على البيضة، ولا البيضة أسبق على الدّجاجة؛ فالوجود والماهية شيئان في شيء واحد، فلو لم يكن الوجود ما كانت الماهية، ولو لم تكن الماهية ما كان خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ فماهية الإنسان لو لم تكن معطياتها قد خُلقت وجودا، ما كان للإنسان رُقيّ، ولكن الإنسان وإن ارتقى إلى ما يمكن بلوغه ارتقاء؛ فسيظل قاصرا وفقا لقدراته المحدودة التي لا تمكّنه من أن يكون الله كما اعتقد الفيلسوف سارتر بقوله: "أن أكون إنسانًا، هذا يعني أن أنحو لكي أكون الله"[93].

[93] جان بول سارتر، الوجود والعدم بحث في الأنطولوجيا الظاهراتية، (ترجمة عبد الرحمن بدوي) دار الآداب، بيروت، 1953، ص 218.

ولأنّ القاعدة المنطقية تقول: (لا معلول إلّا ومن ورائه علّة، ولا سبب إلّا ومن ورائه مسبّب)؛ فالاختلاف إذن وجب مع قول الفيلسوف سارتر: "كل موجود يولد بلا سبب، ويستطيل به العمر عن ضعف منه، ويموت بمحض المصادفة"[94]، ولكن لا أدري كيف يموت الموجود بمحض المصادفة وهو لا يمتلك قرار موته، وبخاصّة أنّ سارتر قد ربط الوجود الإنساني بالحرّية، وكأنّ من لا حرّية له لا وجود له!

ولأنَّ الكمال لله وحده كان التناقض في شيء من تنظيرات الفيلسوف سارتر الذي قال: "عندما الأغنياء يخوضون حروبا مع بعضهم البعض، الفقراء هم الذين يموتون" أي: إنّ سارتر قد اعترف بسبب من أسباب الموت وهو الاقتتال والحروب التي تدور رحاها من أجل المكاسب والمغانم أو الحرّية، التي هي السّبب في موت الفقراء بقرار من الأغنياء، وهنا لا موت بمحض المصادفة، بل الموت بسبب من ورائه مسبب[95]. أي: إنَّ الموت لم يكن مطلبا، بل هو وجود لا يمكن إنكاره؛ فمتى ما شاءه المميت كان وجودا شاهدا على نهاية الحياة؛ فالموت لو لم يكن وجودا فاعلا، ما كان له أثر مشاهد ومحسوس وملاحظ.

وعليه:

فالوجود لا يقتصر على من يمتلك زمام أمره عن حريّة كما يراه سارتر، بل يمتدّ ليشمل كلّ شيء يمكن أن يتمّ التحدّث عنه، سواء أكان ماديّا أم معنويّا (مشاهدا أو ملاحظا أو مدركا)، أي: سواء أكان مكانا

---

[94] المصدر السابق، ص 126.

[95] سارتر، جان پول، الغثيان، (ترجمة فارس ضاهر، عدنان منافيخي) ط 2، 2006.، ص 74.

أم زمانا (حركة وسكونا) وسواء أكان هيئة أم تهيؤا، أم أنّه كان قرارا وإرادة ومسؤولية.

ولأنَّ وراء كلّ معلول علّة، ووراء كلّ سبب مسبّب، إذن: فلا موجود إلّا ومن ورائه واجد له. أي: لا موجود إلّا ومن ورائه من أوجده على قيد الحياة والممات (بداية ونهاية)؛ فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، لو لم يكن من ورائه خالق ما كان وجودا؛ ولهذا فالخرافة الضارة أن يؤخذ بقول الفيلسوف سارتر: "إنّ الله خرافة ضارة"[96]، وبخاصّة أنّه يعلم أنّه لم يَخلُق نفسه، أي: لو لم يكن من ورائه خالق عظيم ما كان شيئا مذكورا، {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[97].

ومع أنَّ الفيلسوف سارتر يعلم أنّه لم يخلق نفسه، فإنَّه ظنّ أنَّه لا إله يسبقه، ولهذا؛ فهو لا يعلم الحكم المسبق عليه قبل أن يُخلق: (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)، فها هو سارتر لم يكن شاكرا، وهذه من سُنن الخلق البشري؛ إذ البعض قد كفر بالخالق الذي خلقهم على التسيير والتخيير الحرّ، {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[98].

أي: إنّ الذي غفل عنه سارتر هو: أنّه لو لم يكن قد خُلق على فرصة التخيير ما كان له أن يكون كافرا. ولأنّه خُلق مخيّرا فيما يشاؤه عن إرادة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، فهو لا يرى وجودا لمن لم يكن حرّا. وفي هذا الشأن قد غفل عن الوجود المسيّر، وهو: ما لم يكن داخل

---

[96] المصدر السابق.

[97] الإنسان 2، 3.

[98] الانفطار 6 ـ 8.

دائرة النسبية؛ فالوجود كلّه وجود تسيير وتخيير؛ فالتسيير حيث لا إمكانية للتبديل أو أخذ الأمر والرأي وإن صدر أو قيل من قبل القائلين؛ ولذلك فاليوم لا يتبدّل والنّهار لا يتبدّل، وخلق الأجناس لا يتبدّل وإن تغيّرت الأنواع جينيّا.

ومن ثمّ؛ فالتسيير لا تبديل فيه، والتخيير فيه التبدّل؛ فالوجود الإنساني ثابت حيث لا تخيير، وفي المقابل جوهره (ماهيته) تتغيّر تخييرا، وفقا للقدرة والاستطاعة، والرّغبة والحاجة المتطوّرة؛ ولذلك فسارتر لو لم يكن وجوده على التخيير ما كان له أن يقول: (إنّ الله خرافة ضارة)، ولأنّه قالها؛ فهو قد أثبت غفلته عن حقيقة خلقه (تسييرا وتخييرا). أي: لو علم سارتر بخلقه مخيّرا لآمن أنّ من وراء وجوده خالق.

ومع أنّ سارتر لم يغفل عن الوجود والماهية، لكنّه قد غفل عن الهيئة التي تسبق الوجود؛ فالوجود (أيّ وجود) لا يكون إلّا على هيئة تسبقه بفعل فاعل يسبقها. فلو لم تكن الهيئة وجودا سابقا على الوجود ما هُيّء الوجود على هيئاتها وجودا مشاهدا وملاحظا ومدركا.

وعليه: فالهيئة في علم المهيّء لها الأسبقيّة على وجود المتهيأ عليها، والمتهيّأ عليها يسبق ماهية من أصبحت له هيئة خاصّة به، وهي التي بها يتميّز عن غيره كما أنَّ غيره يتميّز عنه صفة وخصوصية ومهنة وحرفة وتجربة وخبرة.

ومع أنَّ الوجود مؤسّس على ماهية سابقة، وهيئة لاحقة، فإنَّه لا مفرّ له من العدم؛ فالعدم بعد الموت يلاحق الأموات بمختلف أنواع الخلائق التي تملأ كوننا.

وعليه: فالوجود هو الحياة الواحدة وإن تعدَّد الأحياء، ولأنَّ الحياة واحدة فلا تكون إلّا من الواحد مصدر الحياة، بمعنى: أنَّ الحياة خلق معجز، بلوغه استحالة فلا يقدر عليه إلّا الواحد الذي بيده أمرها ولمن شاءها؛ ولهذا فالحياة واحدة، ولأنَّها واحدة فلا تكون إلّا بيد الواحد.

الممكن ارتقاءً

الممكن هو: المتيسّر عملًا، وهو ما لم يكن مستحيلا ولا معجزا حتى وإن كان صعبًا أو خارقةً من الخوارق، أي: إنَّ الممكن يقع في دائرة التخيير وليس في هيمنة التسيير، وهو ما يمكّن من بلوغ الارتقاء رفعة؛ ولهذا فالارتقاء مكانة يُمكن أن يكون الإنسان عليها خَلقا، ويمكن أن يكون عليها قيمة لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي والخُلقي، وفي المقابل الارتقاء هناك من يراه تطوّرا يطرأ على الكائنات الحيّة؛ فيغيّر حالتها من دُنيا إلى عُليا، من خلال ما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات؛ ولكنَّ الجينات الخَلقية لم تكن نتاج تكيّف بيئي حتى تتبدّل وتتغيّر مع تغيّر البيئات، بل هي خاصّيّة خَلقيّة تحافظ على الأجناس، حتى وإن بلغ الإنسان من العلم ما بلغه؛ فلا إمكانية له أن يغيّر الأجناس، وستظل الكائنات على ما هي عليه مختلفة، وإن لُعب بها جينيّا، ولكن تحسين أنواعها وتجويده أصبح في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع ارتقاء حتى النّهاية.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقَّع وغير متوقَّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة، ولأنّه كذلك؛ فالأمل لا يفارقه، ولهذا؛ فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي،

والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوفّرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم؛ ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر وفقا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعية، وحتى إن دُرِّبَ منها ما دُرّب أو عُلّم فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقاؤه؛ فالإنسان خُلق متميّزا بخصائص الارتقاء وصفاته التي لم تكن من خصائص بقية الكائنات.

ولذلك؛ فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المنتج، وفي ذات الوقت يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطًا منذ خلقه الأوّل، منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ أدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع إنّه الأمل في الزّمن الحاضر فإنَّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك؛ فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا، يُصبح الارتقاء في دائرة الممكن يستوجب بحثا علميّا مضنيا، وجهدا ينجز وفقا للأهداف المحدّدة والأغراض التي من ورائها والغايات المأمول بلوغها قمّة. وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعا للملاحظة

مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم.

فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدا من الاحترام والتقدير والاعتبار؛ وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّدٌ على حساب الغير.

وهنا؛ فالممكن ارتقاء هو المتاح تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجودٌ لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعد إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنّه الممكن ارتقاء فهو بين متوقَّع وغير متوقَّع، فالمتوقَّع منه هو الذي بحدوثه لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب. أمّا غير المتوقَّع: فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقَّع في دائرة الممكن؛ ولهذا إذا ما حدث غير المتوقَّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقَّع، يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع (هو كما هو) إثباتا. ومن هنا، ينبغي لنا أن نتعرّف على غير المتوقَّع، وعلى علله ومسبّباته لاحقًا؛ ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقَّع.

فالمتوقَّع وغير المتوقَّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن التي فيها تتساوى فرص ظهور كلّ منهما بنسبة ثابتة قدرها (50%)، والمتوقَّع يمكن أن يكون سالبًا، ويمكن أن يكون موجبًا؛ فالموجب منه لا يكون إلّا وفقا لما هو مأمول، والذين لا يأخذون حذرهم يرسمون خططهم وسياساتهم وفقًا لِما هو موجب متوقَّع، وكأنَّ الحياة لا تُحفُّ بالمخاطر، وكأنَّ العلائق بين النَّاس لا تُبنى إلّا على الصّدق فقط؛ ولذلك فهم دائمًا يفاجئون كونهم لم يحدّدوا لغير المتوقَّع موضعا.

وعليه:

ينبغي لنا أن نرسم الخطط والسياسات والاستراتيجيات وفقًا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقَّع موجبًا وما هو متوقَّع سالبًا، وما هو غير متوقَّع موجبًا، وما وهو غير متوقَّع سالبًا.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلًا فعلى الإنسان أنْ:

. يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

. أنْ يخطّط لما هو غير متوقَّع مثلما يخطط للمتوقَّع.

. أنْ يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس، حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

. أنْ يقبل تحدِّ الصِّعاب فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب ألَّا يتمّ تحدّى الصّعاب التي تحول بين الإنسان وارتقائه قمّة.

وبالتّالي فمن يرسم الخطط والاستراتيجيات ويعد البرامج وفقًا لِما هو متوقَّع، عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقَّع،

ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقَّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف أو أضرار أو مخاطر قد تحدث؛ ولذلك فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر، وهذا يعني: أنّ دائرة الممكن هي التي فيها ينصهر الزّمن حاضرا، أي: إنّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ، لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي ذات الوقت يتدبّر الإنسان أمره وكأنّه لا يعيش الزّمن إلّا حاضرا. أي: إنّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي وكأنّه لن يتكرّر، بل ينبغي له أن يره وكأنّه الآن يواجهه تحدٍّ، ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيا له بحلولٍ حاسمة، وهكذا ينبغي له أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه مغالبة حتى لا تحدث المفاجئات المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة ارتقاء.

فالممكن احتمالا يسبق ما يمكن أن يكون محتملا أو غير محتملٍ؛ ولهذا فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلا، فالممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل، ومن ثمّ يظل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق، ومن هنا يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطل حدوثه.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء، ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّ في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل، إذن: فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلا، وعندها يدرك الإنسان أنّه في حاجة لمزيد من الارتقاء، ومع إنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكنٌ ولكنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته ومحدودية إمكاناته، وبالرّغم من ذلك فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدٍّ؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي.

ولهذا؛ فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكنٌ؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وأن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة، فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود فعلامات الاستفهام، والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء؛ ولذلك فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقَّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقَّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقَّع.

ومع أنَّ في دائرة الممكن يتساوى حجم المتوقَّع مع غير متوقَّع، فإنَّ دائرة الممكن تظل واسعة، فمهما فكّرنا فلن نبلغ كلّ ما نفكّر فيه؛ فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل، لو لم يكن ممكنٌ، ما كان البحث عنه، ولهذا؛ فالبحث عن العمل ممكن، والحصول عليه ممكنٌ، وعدم الحصول عليه ممكنا أيضا. ولكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل كما قُدِّمت إلى محمَّد أبو عزيزي بمدينة سيدي أبو زيد بتونس الذي كان الأمر بالنّسبة إليه غير متوقَّع، وذلك في مقابل ما اتخذه من فعل (الاحتراق) الذي لم يكن هو الآخر متوقَّعا

من قبل الذين قدّموا له الإهانات، ممّا ترتّب على الفعلين غير المتوقَّعين فعل ثالث غير متوقَّع، ألّا وهو الثورة، التي لم تطفئ نارها إلّا بسقوط نظام الرئيس التونسي زين العابدين بن علي من قمّة السُّلَّم السّلطاني.

ولذا؛ فالعلاقة بين المتوقَّع وغير المتوقَّع هي علاقة قاعدة واستثناء، فحيثما كانت القاعدة كان الاستثناء متلازما معها، ومن هنا يجب التفكير وفقا للقاعدة دون الغفلة عن الاستثناء، ومن يغفل عنها فليس له إلّا المزيد من المفاجئات.

وبما أنَّ الارتقاء ممكنا فلا مستحيل في دائرة الممكن حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا وجب العمل على تذليل الصّعاب كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء لابدّ أن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه ينبغي لنا تحدّي الصّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملا راقيا تنجزه الإرادة.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، فإنَّه لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما بالرّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدَّي الصِّعاب)

أمّا لاستثناء: (الاستسلام لها).

ولأنّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه؛ ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وتنفيذه.

فالتهيّؤ في دائرة الممكن هو ارتقاء لأداء العمل الموجب؛ وكذلك هو ارتقاء لمواجهة ما يمكن أن يكون من فعل سالب؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل فهي تُرسم لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيؤ إرادة بلغ القناعة المحفّزة والدافعة إلى تنفيذ العمل ومواجهة ما يعيقه من صعوبات؛ ولذلك فالذين يتهيّؤون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته؛ فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيديهم على الزّناد مرتعشة ، وهنا تكمن العلّة.

إذن: فمن تهيّأ واستعدَّ لعمل وأقدم عليه ليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيّره عن الاستمرار فيه إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة؛ ومن هنا فكلّما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضية الخارجية مثار الانتباه والاهتمام كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا؛ فالتهيّؤ للقول يؤدّي إلى الاستعداد لأنّ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، فإنَّه إن لم يعقب التهيؤ استعدادٌ فلا إمكانية؛ إذ لا إرادة؛ ولذلك فإنّ غياب الإرادة يغيّب كلّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ تقوى درجة الاستعداد المترتّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما.

ومع أنّه لا إمكانية للارتقاء بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد وحتى إن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّذ ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن: فمن يتأهّب لأداء الفعل ارتقاء لابدّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّة فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجئات في كلّ مرّة فأخذ الحيطة والحذر ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا، تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحا مساندا.

ولذلك؛ فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن وعيش النّعيم، وهذه مع إنّها غايات، فإنَّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقَّع وغير متوقَّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهبون لحسم الأمر، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات غاية.

ولأنَّ النّشوء في دائرة الممكن ارتقاء يمكّن من بلوغ الغايات فالمزيد من التّأهب إليه يُسرّع بحركة إحداث النُّقلة مع تسارع امتداد الكون إلى

النّهاية؛ ولهذا لن تستطيع تلك الأنظمة المعيقة للارتقاء أن تصمد أمام التسارع ارتقاء تجاه إحداث النُّقلة المأمولة.

وعليه: فالارتقاء قيمة تفضيلية خصّ الله بها الإنسان خَلقا وخُلقا، فهو في خَلقه كان في أحسن تقويم، أمّا في خُلقه فينبغي له أن يكون على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي أمر بها الخالق، وفضّلها النّاس، {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[99].

ومن هنا؛ فالفرق كبير بين تلك الزّواحف ومكبّة الأوجه، ومن يمشي سويّا (مقوّما)؛ ذلك هو أمر الخالق؛ فلا يتبدّل، أمّا المتبدّل فهي الأخلاق التي هي بيد المخلوق.

ولذا؛ فلا إمكانية لتلك المخلوقات أن تتطوّر وترتقي كما يظنّ البعض لتصبح غير زاحفة، أو غير مكبّة الأوجه. وفي المقابل يمكن للإنسان الذي يمشي سويّا أن ينحدر خُلقا فيضل ويظلم ويعتدي بغير حقّ، ومع ذلك فلن ينحدر خَلقا.

وهذا ما حصل مع الإنسان الأوّل (آدم) الذي خُلق في أحسن تقويم، ولم يُخلق على الكمال، إنّه الإنسان بين التسيير والتخيير الذي (يصيب ويخطئ)، وبين هذا وذاك يستغفر؛ فيتاب عليه، ومن ثمّ فمخالفة أبينا آدم هي مخالفة تخييريّة ذات علاقة بالإرادة والرّغبة والشّهوة، وهذه مكامن العلل والضّعف النّفسي التي تجرّ لما لا ينبغي (للمخالفة) كما تجرّ لما ينبغي (الطّاعة والاتباع)؛ ولذلك فحسن التقويم لا يتغيّر، أمّا حُسن الأخلاق في دائرة الممكن فيتغيّر بين سُفلية وارتقاء.

---

[99] الملك 22.

ولأنَّ الأخلاق لا تخرج عن دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع رُقيّا فلا استغراب أن يحدث الخطأ، بل الاستغراب ألَّا يصحّح ولا يقوّم كما صحّحه أبونا آدم وقوّمه ساعة حدوثه، وساعة كشف علله، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[100]؛ لأنّ الكلمات الصّائبة تصحّح الأخطاء الواقعة، وهذه تتعلّق بارتقاء الأخلاق، ولا تتعلق بالخَلق الذي لا يتبدّل.

ومن ثمّ؛ في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لابدّ وأن يقع الإنسان في الخطأ، أمّا الاستثناء في دائرة الممكن ألَّا يُصححه؛ ولهذا أخذ أبونا آدم بالقاعدة: (متى ما وقع الخطأ وجب التصحيح) الذي يوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بالمعلومات الصّائبة.

وعليه:

فالارتقاء قيمة خُلِقَ الإنسان عليها من طين الجنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماوات، {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[101]؛ ولأنّ الإنسان الأوّل خُلق من تراب الأرض المرتقة في السّماء جنّة، كان خلقه في أحسن تقويم، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[102].

ولذا؛ فأساس خلق الإنسان التقويم الحسن دلالة ومعنى وصورة، أمّا الاستثناء ألا يحافظ الإنسان على حُسن التقويم الذي خُلق عليه خلقا. وهذا ما حدث مع أبينا آدم عندما لم يأخذ بما أُمِرَ به وهو: ألا يأكلّ من تلك الشّجرة، {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

---

[100] البقرة 37.

[101] الأنبياء 30.

[102] التين 4.

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[103].

ومن هنا، جاء انحدار أبينا آدم عوضا عن الارتقاء الذي خُلق عليه خلقا قال تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[104]؛ إذ الهبوط على الأرض التي فتقت من السّماوات فأصبحت أرضا دنيا إذا ما قورنت بما بقي في علوٍ (في السّماء). ولكن آدم الذي خُلق على حُسن التقويم تدارك أمره فاستغفر ربّه؛ فتاب عليه، مصداقا لقوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[105]؛ ولهذا فقد استثني آدم من الوجود السُفلي كونه تاب الله عليه بسبب استغفاره ورُقي إيمانه، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}[106].

وعليه:

فالإنسان الأوّل (آدم) كونه قد خُلق في أحسن تقويم فتقويمه الخَلقي لم يتغيّر، بل الذي تغيّر هو عدم أخذه بما يبقي الأخلاق ارتقاء؛ وذلك حينما أخذ بما يغوي، وهو: المنهي عنه (ألّا يأكل من تلك الشّجرة)؛ فحاد آدم عن الخُلق الذي هو بيده تخييرا، ولكن لم يحد عن خَلقه المقوّم تسييرا؛ إذ لا إمكانية له في ذلك.

فالارتقاء خَلقا سيظل باقيا ومميّزا لبني آدم، ولن يتطوّر أكثر من حُسن التقويم، وكذلك لن ينحدر عنه فهو الخَلق الذي لا يتبدّل كونه بيد الخالق، أمّا المتبدّل: فهو الذي بيد المخلوق، وهي: الأخلاق، ومن

---

[103] البقرة 35، 36.

[104] التين 5.

[105] البقرة 37.

[106] التين 6.

هنا، أكل آدم من تلك الشّجرة؛ إذ الرّغبة والإغواء المزيّف للحقيقة، وهو الذي شوّه الأخلاق انحرافًا.

تحدّي الصِّعاب ممكنًا:

الصِّعاب تستوجب مزيدا من الجهد لتحديها دون أن تكون مستحيلة التحقّق؛ فهي التي تواجه من يعمل ولا تواجه الكسالى، وهي التي لا تصمد أمام المتحدّين لها صبرا ومزيدا من الثبات وبذل الجهد الممكّن من إنجاز الأهداف أو تحقيق الأغراض أو بلوغ الغايات ونيل المأمول أو الفوز به، ولا مستحيل في دائرة الممكن حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصِّعاب كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصِّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لابدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه ينبغي له تحدّي الصِّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملا راقيا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق.

ولذا؛ فالتهيّؤ لتحدي الصِّعاب يُمكّن من أداء العمل ارتقاء؛ فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل تحدّيًا تُرسم أيضًا لمقاومة المعيقين له؛ ولذلك فالذين يتهيّؤون لارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان هم يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلهم بكلّ قوّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيديهم على الزّناد مرتعشة، وهنا تكمن العلّة.

ومن تهيّأ واستعد لتحدي الصِّعاب وأقدم عليها فليس بالأمر الهين أن يتهيّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيها، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توفَّرت الأفكار والحُجج تجاه القضية

الخارجية مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيّؤ متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا؛ فالتهيّؤ للقول الصّعب يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، فإنَّه إن لم يعقب التهيؤ استعداد فلا إمكانية، حيث لا إرادة، ولذلك؛ فإنّ غياب الإرادة يغيّب كلّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما وحينها لا إمكانية لتحدي الصِّعاب؛ أي: لا تحدٍّ بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وأن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

وعليه:

إذا أردت تحدّى الصِّعاب فعليك:

. أنْ لا تحصر التفكير في شؤونك أو شؤون الغير الذي تربطك به علاقة وأهمية على المتوقّع فقط، بل تجاوزه إلى ذلك غير المتوقّع حتى وإن كان صعبا.

. تأكّد أنّ الصّعب لا يستطيع المقاومة إذا تحصّنت له متحدّيا.

. اصمد فالصّعب لا يصمد، أي: عليك أن تعرف أنّ ما يبدو صعبا للبعض لا يبدو كذلك لدى البعض الآخر؛ ولهذا عليك بقبول التحدّي حتى تهزمه كما غيرك هزمه.

. الصّعب لا يزيد عن كونه حيويّة؛ فينبغي له أن يواجه بها ولا يواجه بغيرها. أي: لا يمكنك أن تهزم خصما وأنت لم تمتلك ذات السّلاح الذي يمتلكه تقنية. ولكن عندما تمتلك ذات السّلاح، فليس له بدّ إلّا أن يقدّرك صلحا وتصالحا وعفوا {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}107.

. مواجهة الصّعب لم تكن مستحيلة، ولأنّها ممكنة فَلِمَ لا يواجه إلّا من البعض؟

أقول:

لأنَّ البعض دائما أفضل من البعض، أي: دائما الواعون والصّابرون والمؤمنون بأنّ الحقّ يُحقّ يعملون على إحقاقه تحدّيا وقهرا للباطل.

. الصّعب على علاقة بالباطل من حيث إنّه لا يصمد إذا ما حدثت معه المواجهة؛ ولهذا الصّعب يقهر والباطل يبطل، ولكن لا يكون ذلك إلّا على أيدي الصّامدين.

. اقبل بدفع الثمن جهدا ووقتا وإمكانات تنل أضعافها مكاسب وفوائد متى ما استسلم لك الصّعب قهرًا.

. تحدَّ الخوف الذي يقنعك كسلا، فاعمل وابذل المزيد من الجهد تجد نفسك منتجا، وفي المقابل إن استسلمت له فستجد نفسك متسولا مع المتسولين على الأرصفة وبين الأزقة.

. أهّب نفسك للعمل تجد العمل بين يديك، وأهّب نفسك للتحدّي تجد نفسك متحديا، وأهّب نفسك لمواجهة الصِّعاب تجد الصِّعاب مستسلمة.

---

107 الأحزاب 25.

فالتأهّب لتحدّي الصِّعاب يؤجج في النّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف مع إصرار على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء عن عزيمة بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّذ ما يشاء، وكيفما يشاء، ومتى ما يشاء في مشيئة الله تعالى.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن: فمن يتأهّب لأداء الفعل الصّعب ارتقاء لابدّ وأن يكون متأهّبا لما يترتّب عليه من ردّة فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجئات في كلّ مرّة فأخذ الحيطة والحذر عند تحدّي الصِّعاب ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النَّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، حتى تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحا مساندا، ولذلك؛ فالغاية من بعد الحلّ بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنّها غايات، فإنَّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدون إليها، ويتأهبون لتحدي الأمر الصّعب، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات غاية بعد أمل.

ومن هنا، تعد الصِّعاب مجموعة من المعيقات التي لا يتمُّ تجاوزها إلّا بالإزاحة، أي: لا إمكانية لإنجاز الأهداف، وتحقيق الأغراض، وبلوغ الغايات، ونيل المأمولات ما لم تُزَحْ العوائق من السبيل المؤدّي إلى ذلك.

ولأنّها عوائق؛ فهي قابلة لأن تزاح، ولأنّها قابلة للإزاحة، فلا داعي للانتظار، ومن يتأخّر عن إزاحتها في شبابه، سيجد نفسه متأخرا عمّن أزاحوا مثيلاتها وتقدّموا، والصِّعاب لا تخيف، بل المخيف عدم الإقدام

على تحدّيها. ومع ذلك فالصِّعاب لا تواجه الكسالى، بل تواجه المتطلّعين لصنع المستقبل، فالصِّعاب إن لم تداهم تحدٍّ، تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه ينبغي لنا تحدّي الصِّعاب تهيؤا، واستعدادا، وتأهّبا، وعملا راقيا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق.

فالتهيّؤ للقول الصّعب يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، والتهيّؤ للعمل المنتج يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب، ومن ثمّ فالتهيؤ لبلوغ المأمول يؤدّي إلى نيله.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، فإنَّه إن لم يعقب التهيؤ استعداد فلا إمكانية؛ ولذلك فإنّ غياب الأمل يغيّب كلّا من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما وحينها لا إمكانية لتحدي الصِّعاب؛ أي: لا تحدّ بلا أمل وإرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وأن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ المأمول والفوز به.

وعليه:

إذا أردت تحدّى الصِّعاب أملا فعليك بالآتي:

. أنْ لا تحصر التفكير في شؤونك أو شؤون الغير الذي تربطك به علاقة وأهمية على المتوقّع فقط، بل تجاوزه إلى ذلك غير المتوقّع حتى وإن كان صعبا.

. تأكّد أنّ الصّعب لا يستطيع المقاومة إذا تحصّنت له متحدّيا.

. اصْمد فالصّعب لا يصمد، وعليك أن تعرف أنّ ما يبدو صعبا للبعض لا يبدو كذلك لدى البعض الآخر؛ ولهذا عليك بقبول التحدّي حتى تهزمه كما غيرك هزمه.

. الصّعب لا يزيد عن كونه حيويّة؛ فينبغي أن يواجه بها ولا يواجه بغيرها. أي: لا يمكنك أن تهزم خصما وأنت لم تمتلك ذات السّلاح الذي يمتلكه تقنية. ولكن عندما تمتلك ذات السّلاح؛ فليس له بدّ إلّا أن يقدّرك ويحترمك ويعترف بك مساويا له على كفّة العدالة.

. مواجهة الصّعب لم تكن مستحيلة، فَلِمَ لا يواجه إلّا من البعض؟

أقول:

لأنَّ البعض أفضل من البعض، أي: دائما أصحاب الآمال العريضة والواعون والصّابرون والمؤمنون يواجهون التحدي بتحدٍّ.

. اقبل بدفع الثّمن جهدا ووقتا وإمكانات تنل أضعافها مكاسب وفوائد متى ما استسلم لك الصّعب قهرًا.

. تحدَّ الخوف الذي يقنعك كسلا أو يخالجك جبنا، فاعمل وابذل المزيد من الجهد، وفي المقابل إن استسلمت فستجد نفسك متسوّلا مع المتسوّلين على الأرصفة وبين الأزقة.

. أهّب نفسك للعمل تجد العمل بين يديك، وأهّب نفسك للتحدّي تجد نفسك متحدّيًا، وأهّب نفسك لمواجهة الصِّعاب تجد الصِّعاب مستسلمة.

ولذلك؛ فالغاية بعد معرفة الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ الأمل رفعة، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات، لكنّها ستظل في دائرة

الممكن ارتقاء بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيؤون لها، ويستعدون إليها، ويتأهبون لتحدي الأمر الصّعب، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات ومن بعدها نيل المأمول. ولكن وفقا لدائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) كلّ شيء قابل لأن يتغير كلّما توافرت معطياته أو اشتراطاته والرّغبة من ورائهما حافزٌ ودافعٌ.

ولذلك فتَوافر الرّغبة في دائرة الممكن المتوقّع يُسهِّل من عمليات الإنجاز، ويُسرّع من عمليات الإقدام ويحقّق نجاحا رائعا، أمّا في دائرة الممكن غير المتوقّع فقد لا يحقّق ذلك، فعلى سبيل المثال: الشّاب الذي ذهب إلى أحد حكماء الصّين ليتعلَّم منه سرّ النّجاح وسأله: "هل تستطيع أن تذكر لي ما هو سرّ النجاح؟ فرد عليه الحكيم الصيني قائلا: "سرّ النّجاح هو الدّوافع" فسأله الشّاب ومن أين تأتي هذه الدّوافع؟ فردَّ عليه الحكيم: "من رغباتك المشتعلة"، وباستغراب سأله: وكيف تكون عندنا رغبات مشتعلة؟ وهنا استأذن الحكيم الصّيني لعدّة دقائق وعاد ومعه وعاء كبير ملئ بالماء وطلب من الشّاب أن يقترب من وعاء الماء وينظر فيه، فنظر الشّاب إلى الماء عن قرب وفجأة ضغط الحكيم بكلتا يديه على رأس الشّاب ووضعها داخل وعاء الماء ومرّت عدة ثوانٍ بدأ الشّاب يشعر بالاختناق، وبدأ يقاوم بشدّة حتى نجح في تخليص نفسه وإخراج رأسه من الماء ثم نظر إلى الحكيم وسأله بغضب: ما هذا الذي فعلته؟ فرد عليه: ما الذي تعلّمته من التجربة؟ فقال الشاب: لم أتعلم شيئا.

قال الحكيم: لا يا بني لقد تعلّمت الكثير، ففي الثواني الأولى أردت أن تُخلِّص نفسك من الماء، ولكن دوافعك لم تكن كافية لعمل ذلك، وبعد ذلك كنت دائما راغبا في تخليص نفسك فبدأت في التحرُّك

والمقاومة ولكن ببطء حيث إن دوافعك لم تكن قد وصلت بعد لأعلى درجاتها، وأخيرا أصبح عندك الرّغبة المشتعلة لتخليص نفسك وعندئذ فقد نجحت.

ومن هنا، وجب غرس الثقة في أنفسنا ثمّ استمداد القوّة منها إن أردنا بلوغ المأمول، وإلّا سنكون ضعفاء ولا شيء لدينا إلّا الأمنيات التي لا يمكن أن تصنع لنا مستقبلا؛ ولهذا لا ينبغي لنا أن نغفل عن:

. تهيئة الاستعدادات النفسية والبدنية والمالية لما هو متوقّع ومأمول ولما هو غير متوقّع حتى لا تحدث المفاجئة.

. غرس الثّقة في النفس؛ حتى يتم التمكّن من تحدي الصِّعاب.

. تحديد الأدوار الواجب لعبها؛ لتحقيق الأهداف المحددة من قبل المجتمع أو مؤسساته أو هيئاته وجمعياته.

. غرس الثّقة في نفس الفرد وفي القيم الاجتماعية الموجبة.

. غرس الثّقة في أنفس الجماعة من خلال المشاركة الفعّالة في إعداد البرامج والمشاركة في تنفيذها والقيام بها.

. تنمية قدرات أفراد الشعب كلّه وغرس الثقة بينهم؛ حتى يتمكّنوا من تحقيق أهدافهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والنفسية والذوقية وفقا للخطط والاستراتيجيات المرسومة.

. تهيئة استعداد الأفراد والجماعات لما يجب والتطلّع بهم إلى ما يُحدث النُّقلة.

. غرس الثقة في أفراد الشعب من خلال مؤسّسات الدّولة، دون الإغفال عن مشاورتهم فيما يتعلّق بهم من أمر، وأخذ وجهات نظرهم تجاه المستقبل الذي يأملونه أو يتطلعون إليه.

. تنمية قدرات الأفراد والجماعات مع مراعاة أصحاب الحاجات الخاصّة وتأهيلهم وتدريبهم ورعايتهم مع دراسة حالاتهم وتوظيفهم كونهم مفردة من مفردات المجتمع المستهدف صُنع مستقبله.

. تقوية الإمكانات المادّية وتدعيمها بالمعلومة والمعرفة الواسعة المساندة للتطوّر والتقدّم واستثمارها فيما يفيد.

. تحفيز أفراد الشعب على المشاركة الفعّالة، ودفع مؤسّسات الدّولة إلى الإقدام على ما يفيد وينفع خدمة وإنتاجا.

. استثمار الإمكانات البشرية والمادّية في تحسين أحوال الأفراد والجماعات وتحسين أحوال البيئة.

. إشعار أفراد المجتمع بأهمية المشاركة الاجتماعية في اتخاذ القرارات وتنفيذها وتقويمها من الانحراف.

. حث الأفراد على الاستفادة من الإمكانات المتاحة والبحث عن إمكانات أخرى أو إمكانات بديلة في حالة نقص الإمكانات أو شُحِّها، واستثمار ما يتوفّر منها إلى أقصى درجة ممكنة، تحقيقا لعمليات التغيير الموجب.

. تأكيد أهمية المشاركة ودورها في بناء الثقة بتحريض الأفراد على ممارستها من أجل تأكيد منطق (النّحن) المستوعب للأنا والآخر حتى تتضاعف القوّة ويزداد العطاء وتعم المكاسب ويتم نيل المأمولات.

. دفع الأفراد والجماعات وهيئات الدولة ومؤسّساتها إلى استيعاب الجديد والعمل على تطويره.

. الإصرار والتصميم على إزالة الشّكوك والمخاوف وكلّ ما من شأنه أن يجعل المواطن في حالة خوف أو قلق بأمل يحفّزه ويدفعه إلى المشاركة في صناعة المستقبل.

. تمكين الأفراد من إدارة شؤون حياتهم بإرادتهم الحرّة دون أيّ إكراه أو إجبار وغرس الثقة في أنفسهم وفي مقدرتهم على إدارة ما يتعلّق بهم من أمر مع إرشادهم لِما يفيد عمليات الاستثمار للإمكانات المتاحة، وتعريفهم بأساليب البحث عن البدائل كلّما دعت الضّرورة لذلك؛ ولهذا فكلّ ما لم يكن مستحيلا ممكنٌ، وكلّ مستحيل مثبت وهو الذي نعلمه ولا نعرفه، فعلى سبيل المثال:

. نعلم يوم الحساب ولكنّنا لا نعرفه ولا يمكن لنا ذلك.

. الشمس تشرق وتغرب ولن نستطيع تغيير أمرها أو تبديله.

. القمر تعكس الضوء ولن نستطيع إخفاء الضوء عنها.

. الموتى لا يعودون إلى الحياة ولن نستطيع إيقاف الموت عنّا.

. المستحيل مع أنّه موجود ولكنّه لا ينفى كغيره من الموجودات في دائرة الممكن، فعلى سبيل المثال: عندما يكون اليوم السبت فإنَّ الأحد سيأتي غدا وفقا لعلمنا، ولكن عندما يقع المستحيل فقد لا يأتي الأحد واليوم الغد الذي يحتويه. إنّه الشيء الخارج عن دائرة الممكن وفق حساباتنا وقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا؛ ولذا فكل من الممكن والمستحل يحدثان وفقا لتوقعاتنا، ولكن الممكن يتحقّق بأيدينا والمستحيل ما لم

تستطع أيدينا فعله، أي: المستحيل نتوقّعه ولكن وقوعه من خارجنا، أمّا الممكن فنتوقعه ويحدث داخلنا[108].

بلوغ الخوارق ممكنًا:

تحدّي الصّعاب بحثٌ علميٌ غير مقولبٍ يتجاوز بالباحثين معرفة ما آلفته طرق البحث العلمي التي تصوغ فروضا يكون جزءٌ من المعلومة متوّفرا فيها وجزءٌ منها مجهولا، أمّا بلوغ الخوارق فهو تجاوز للمقولب بتساؤل: لِمَ لا يكون المتوافر بعكس ما هو عليه؟ كما تساءل نيوتن: لم لا تصعد التفاحة إلى أعلى بدلا من سقوطها إلى أسفل؟ وبدأ في بحثه وتجاربه حتى اكتشف قانون الجاذبية إضافة جديدة تامّة كونها لم تستمد من نصف المعلومة المجهول، بل اكتشفت معلومة جديدة فكانت إضافة تامّة للعلوم والمعارف الإنسانية.

إذن: الخوارق بها يتمّ تجاوز المألوف والمحتمل في دائرة الممكن غير المتوقّع من خلال تحدّي العقل البشري للكوابح والمعيقات، وهي نتاج المقدرة الذهنية ذات الرؤية الثاقبة للمشاهد والملاحظ بغاية التعرّف عليه وعلى القوانين التي هو عليها وعلى الكيفية التي بها خُلق حتى التمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا.

ولهذا؛ فالخوارق تُصنع وتُبدع كونها على غير سابقة معروفة، فمن بلغها اختراقا (تجاوز للمألوف) وأظهر ما كان مجهولا أو مختفيا لحيّز المشاهدة والملاحظة فقد أضاف جديدا لميادين المعرفة الواسعة. فالخوارق لو لم تكن ممكنة ما كانت، ولأنّها في دائرة الممكن فهي ستتولّد خارقة

[108] عقيل حسين عقيل، الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 14.

ومن بعدها خوارق. وما الاستغراب الذي يصاحبها أو المفاجئات التي تلاحق وجودها إلّا بسبب كونها لم تكن متوقّعة.

والخوارق تُصنع؛ لأنّها تأتي عن غير قاعدة، وعن غير معتاد ولا مألوف ولا متوقّع، ممّا يجعل علامات الاستغراب والاستفهام والتعجّب توضع عليها وعلى من اكتشفها أو جاء بها.

أمّا الصُّنع فهو إظهار ما لم يكن ظاهرا، أو إيجاد ما لم يكن بين اليدين موجودا، أو إظهار الشيء الظاهر على غير ظهوره إبداعا، أو استخراج الشيء من الشيء بطريقة أو أسلوب غير معتادٍ ولا مألوفٍ.

والصُّنع هو أن يتمّ الإتيان بما لم يسبق لأحدٍ الإتيان به، وهو نتاج التفكير المفتوح حيث لا سقف يحدّه ولا موانع تكبحه، أمّا الخارقة فهي بلوغ ما لم يكن متوقّعا، والخوارق أعمال غير معجزة، أي: لو لم تكن ممكنة ما كانت، ولكنّها غير عامّة فهي تحتاج إلى مقدرة عقلية تتجاوز بصاحبها ما يمكن تدبّره إلى ما يمكن بلوغه كونه لم يكن مستحيلا ولا معجزا، والخارقة تقود أصحابها فكرا إلى الإبداع الممكّن من معرفة ما كان مستغربا.

ومن ثمّ؛ فالفكرة تحدٍّ تقود إلى العمل المبدع، والعمل المبدع بداية قد يصفه البعض بالمستحيل بالرّغم من تحقّقه مشاهدة وملاحظة، فالهبوط على القمر، البعض كذّبه بداية، ولكنّه لم يصمد في تكذيبه؛ لكونه أصبح حقيقة لا تُخفى.

ومن ثمّ؛ فالصّعود إلى القمر يعد عملا من أعمال الخوارق التي بإمكان العقل البشري أن يبلغ ما هو أعظم منه، فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المحقّق للخوارق وفقا لدائرة الممكن المتوقّع

وغير المتوقّع، ولا استغراب، ولا مفاجأة، بل الاستغراب ألا يرتقي عقل الإنسان إلى اقتناص الفكرة الممكّنة من الارتقاء وبلوغ الخوارق.

وهنا، أقول:

الجنّة بين أيديكم فاعملوا يا بني آدم من أجلها، فاغزوا الفضاء بكلّ الخوارق التي بإمكانكم العمل عليها والعمل بها، فبلوغ الجنّة غير مستحيل، بل المستحيل ألَّا تعملوا ارتقاء من أجل بلوغها.

وهنا لا أقول مواعظ، بل لِمَ لا نتعظ، ونتدبّر أمرنا حتى نتمكّن من بلوغ الخوارق ارتقاء؟ ومن يرى غير ذلك فكأنّه لم يُخلق بصيرا، وليس له من الحواس ما يمكّنه من خَلق الخوارق وتجاوزها بخوارق أكثر ارتقاء؛ فمن يغفل عن ذلك فكأنّه قد غفل عمّا بنته الحواس وما ستبنيه من حضارات، فالتذكّر يربط العقل بما أنجزته أيدي النَّاس، وبما غفلت عنه؛ ليتدبّر حاضره، ويفكّر في مستقبل يستوجب رسم الخطط الممكّنة من الخوارق في دائرة الممكن.

وعليه:

فالإنسان مؤهّل للارتقاء عقلا وحسّا، فهو يتذكّر؛ ليتّعظ ويُصلح، ويتدبّر؛ ليبني وينتج، ويفكّر؛ لإيجاد خارقة بها يصنع مستقبلا راقيا، يَرتق الأرض بالسّماء.

ومن أراد أن يكون له شأن؛ فليعمل على تحقيق المكانة قيما وفضائل، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيما وفضائل؛ فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي له أن يكون عليه ارتقاء.

فالارتقاء حركة دؤوبة، يتحقّق عبر التّاريخ بالجهد الرّصين والعمل المتّصل، الذي منه تؤخذ العبر، وتستمدّ المواعظ، وتنقل التجارب النّاجحة شواهد؛ فالارتقاء لا يحدث فجأة؛ فهو مثل الوليد، يولد وهو في حاجة للرّعاية والعناية، ثمّ يكسب قوّة تدفعه إلى تحقيق ما هو أعظم، وهو كالبناء بدايته وضع حجرة على الأرض، ثمّ يصبح صرحا شامخا وكأنّه يريد أن يفتق الأرض بالسّماء ثانية، فهكذا هو الارتقاء تطلّعا يجسّد الطّموح، ويمكّن من بناء حضارات أهلها يسودون ثمّ يفنون، وتبقى الحضارة تاريخا متكئا على الارتقاء علما وفكرا وقيما وفنا وثقافة وإعمارا وبناء.

ولأنّ التاريخ البشري مليء بالتّجارب النَّاجحة، وكذلك الفاشلة، فهو قد مرّ بنشوء حضارات سادت ثمّ بادت وحلّت محلّها حضارات أخرى، ففي تلك الأحقاب سادت حضارة عاد وثمود، ومن بعدها حضارات الغرب، وحضارة الفرس، وحضارة الإسلام والعرب، واليوم حضارات الشّعوب تتداخل لتسود القرية الصّغيرة، فهي بالرّغم من تنوّعها، فإنّها حضارة أمّة واحدة، إنّها تقدّر الخصوصيّة، وتُمكّن من الاندماج علما ومعرفة، وتقنية وإعمارا، وتؤكّد قيمة الإنسان في ممارسة حقوقه، وأداء واجباته، وحمْل مسؤولياته وبكلّ شفافية.

ومع ذلك فالإنسان دائما في حاجة للارتقاء؛ فهو يسعى من أجل حياة أكثر أمنا، وأكثر نعيما، وأكثر عدلا، وأكثر رفاهية ورقيّا، فقيمة الإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، تستوجب تقديرا عاليا، ورعاية صحية متقدّمة، وتعليما يخلّص من أيّ تأزمات تحدث، ونُظما تُمكّن من التمدّد بكلّ حرّية دون أن يحدث أيّ تماسّ مع تمدّد الآخرين بكلّ حرّية.

ولكن هذه لن تتحقّق ما لم يرتقِ الإنسان عن مثيرات الشّهوة، وإغواءات النّفس، ومغريات الحياة الدّنيا (السُّفليَّة)، وتفضيلات الأنا على حساب الغير، وألا يتردّد، والخوف ضرورة من أجل مستقبل ناهض وسلامة وأمن يمكّننا من بلوغ الخوارق تحدٍ للحاضر بما هو أكثر جودة.

ولذلك؛ فالاختلاف لن ينقطع بين النَّاس بما أنّ هناك من يرى القيم والفضائل أساس العمل والتقدّم والارتقاء، ومن يراها لا تزيد عن كونها قيودا ينبغي لها أن تزال متى ما تعارضت مع المصلحة الخاصّة، ومع وجود الاختلاف، فلا وجود لما يعيق ولادة الخوارق، بل الاختلاف هو المحفّز تحدٍ ومنافسة على ولادة المزيد من الخوارق تحدّ لكلّ الصِّعاب.

ومن ثمّ؛ فالرّغبة في بعض الأحيان تتمركز على (الأنا) أنا ومن بعدي الطّوفان، وهنا تكمن العلّة، وحتى لا تكون الأنانية القاتلة؛ فعلينا بتضافر الجهود والنّهوض معًا حتى نقضي على عوامل الشّد والتخلّف ونرتقي تقدّما ونهضة من بعدها نهوض مع أملٍ ناهض.

وحتى لا تكون العلّة نهاية المطاف فينبغي لنا بلوغ الحلّ الذي يحتوي في مضمونه قبول الآخر (هو كما هو)، والعمل معه (من حيث هو)، من أجل الارتقاء معًا إلى مستقبل مأمول، فالفرد وإن خُلق فردا فهو لم يُخلق وحيدا؛ ولهذا لا ينبغي له أن يفكّر وحيدا، ولا ينبغي أن يعيش وحيدا، بل ينبغي أن يفكّر حتى يعرف كيف يفكّر جماعيا، وأن يعمل مع الآخرين ارتقاء بغاية ما يجب.

ولكي يتمكّن الإنسان من اتخاذ قراره عن وعي فعليه بمعرفة العلاقة التي تربط قوّة قراره بقوّة اتخاذه، فقوّة القرار تكمن فيما يحقّقه من فوائد، وما يترتّب عليه من ارتقاء مأمول، وما يحدثه من مفاجآت موجبة، ومن ثم؛ فاتخاذ القرار ارتقاء يُمكِّن من إحداث النُّقلة.

ولأنَّ صُنع الخوارق لم يكن مستحيلا فَلِمَ لا تُصنع باستمرار تحدٍّ للعقل بملكاته العقلية؟ فالعقل دائما هو مَكمن الخوارق، فمن بلغ عقله عقلا عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازا، ومن بقي في دائرة المتوقّع فلا إمكانية لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن.

ولكن لكي تصنع الخوارق فهي في حاجة لمناخ مناسب حيث لا قيود على التفكير الإنساني ولا موانع ولا تخويف من أحدٍ، بل المكتبات مليئة بالمصادر والمراجع والدّوريات العلمية، والمقرّرات المدرسية والجامعية معدّة على قاعدة كلّ شيء ممكن ولا استغراب، ثمّ أنّها تحرّض المتعلّمين على التحدّي وقهر الصِّعاب، وإلى جانب ذلك فالتحفيز يسرّع من إدارة العجلة تجاه التقدّم وإحداث النُّقلة وإيجاد ما لم يكن متوقعا.

وعليه:

. بلوغ الخوارق مُمكن فلا تستغرب.

. فكّر فيما تفكّر فيه حتى تبلغ خارقة.

. لا تستسلم للمتوقّع فقط وتغفل عن غير المتوقّع الذي يخرجك من زمن المفاجئات.

. لا تُوقِف تفكيرك عند حدود المألوف، فالتوقّف عند حدوده لا يمكّنك من بلوغ الخوارق إضافة معرفيّة.

. لا خارقة إلّا بمقدرة عقلية، فانتبه لنفسك ولما حولك ولما يجب حتى ولو تجاوزت المألوف بما هو موجب.

. الخوارق يتمّ اكتشافها بين الفجأة والانتباه، فانتبه واعلم أنَّ السّرحان مضيعة للوقت فلا تعوّد نفسك وعقلك الخوض فيه ضياعا.

. اكتشاف الخوارق أو بلوغها يُمكّن من معرفة قوانينها تاليا، أي: إنّ الخوارق تكتشف أوّلا ثمّ بعد الاكتشاف يتمّ التعرّف على القوانين التي هي عليها.

. معرفة الخوارق تمكّن العقل من التحدّي والبحث عن المزيد.

. معرفة الخوارق تحدٍّ للصّعب وقهره.

. معرفة الخوارق تمكّن من معرفة المعجز تسليما.

. معرفة الخوارق تمكّن من معرفة المستحيل والوقوف دونه مستحيلا.

. صُنع الخوارق لا يكون إلّا تجاوزا للقولبة والتمنهج وأساليب الرّتابة المملّة.

. صُنع الخوارق يظهر أو يوجد ما لم يكن ظاهرا أو موجودا معرفيا.

. صُنع الخوارق صور تُنتج على غير هيئة مسبقة.

. يعد استخراج الشيء من الشيء على غير مألوف خارقة عقلية.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يعوّد نفسه على الأخذ بالمنهج العلمي ويفضّل أن يتجاوزه معرفة بما هو أكثر تيسيرا حتى وإن كان نتاج وقته، وعليه بقبول الصِّعاب والعمل على تحدّيها حتى تُهزم[109].

[109] عقيل حسين عقيل، صنع المستقبل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 85 .118.

الموتُ

الموتُ واحد، ولا يكون إلّا بيد الواحد، ولا يتعدّد مهما تعدَّد الأموات، ومن هنا تتَّضح مفاهيم الواحديَّة من حيث التفرُّد بالأمر خلقًا وإعجازًا وحياةً وموتًا وعدمًا وبعثًا.

ولأنَّ الحياة الدّنيا يلاحقها الموت؛ فهي لم تكن حياة بقاء مثل الحياة على الأرض الجنّة؛ ولذلك فكلّ تزاوج يصاحبه التناقص ولا ديمومة للبقاء، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[110].

وسيظل الموت يلاحق الأحياء المتكاثرين إلى أن يقضي عليهم جميعا، ويومها سيكون الموت آخر الأموات، ويومها يبعث الأموات جميعهم إلّا الموت لن يُبعث، حيث لا مكان له في الحياة الخالدة (الجنّة)، {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}[111].

وعليه: فالموت خُلق كما خُلقت الحياة؛ فهو أمر طبيعي لابدَّ منه مادامت الحياة، ويعدّ الموت حقّا؛ لأنَّ الجميع متساوون في حقِّ تملُّكه بالحياة؛ وبالتّالي لن يأخذ أحد هذا الحقّ من الآخر أو حتى يعتدي عليه، أو ينوب عنه فيه.

إذن: الموت آتٍ لا محالة، وبما أنَّه كذلك فلا خوف منه؛ لأنَّه لا أحد يستطيع أن يفعل لك شيئا أكثر من ذلك الفعل، ومرة واحدة، ولن يتكرّر، ومع العلم عندما يفعل الموت ويؤدّي وظيفته بالقضاء على الحياة؛ فلا بد له من أن يُقتل ويُقبر هو الآخر، ويوم موته ستنبعث الحياة من جديد ويصبح للحياة معنى وأهميّة؛ لأنَّها بلا مخاوف ولا موت يلاحقها.

---

[110] الرّحمن 26.

[111] نوح 17، 18.

فالموت الذي كان يخيف الأحياء لم يعد على قيد الحياة، ولن يُبعث معنا للحياة من جديد، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[112] أي: بعد البعث كلّ من عمل عملًا يجده في انتظاره ليجز به.

إذن: لا مفرّ من الموت، ولكن بأعمالنا يمكن لنا الفرار إلى الجنّة أو النَّار، وما أجمل المنطق الذي تحتويه الآية السابقة (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)؛ ولذا لن يعاقب الله أحدا إلّا بما قدّمت يداه، وهذا المنطق إحقاق حقّ.

هذا بالنسبة للموت طبيعيًّا، أمَّا عندما يصبح الموت مطلبًا بأسباب الرّفض كما كان مع السيد محمَّد البوعزيزي في مدينة سيدي بوزيد بتونس، الذي أصبح موته متحقّقًا كونه مثالًا لرفض الرّفض؛ ولذا فالموت إمّا أن يكون طبيعيًّا، وإمَّا أن يكون بثمن قيمته بالتمام تساوي قيمة الرّفض.

وعليه: كلّما اشتدّت التأزّمات وهُدّد الآخرون بالموت من قِبل من هُم في دائرة الرّفض أصبح الموت مطلبًا مع توافر الرغبة؛ ولهذا يفقد الشرطي سلاحه والواعظ حُجَّته وقمّة السُّلطان كرسيّه ويصبح ضحية بلا ثمن وإذا قرّر الرّافض قبول الموت ثمنًا لنيل الحريّة.

ولذا فمن يقرّر أن يواجهك عن إرادة؛ فلا تستهين بأمره، وعليك أن تعرف أنَّ الرّفض عن إرادة كفيل بأن يُنجز في دائرة الممكن غير المتوقَّع ما لم يكن في دائرة الممكن متوقَّعًا.

لذلك فالموت عن إرادة وإن كان سالبًا للحياة يتحوّل إلى قيمة عالية تنال الاعتراف والتقدير والاعتبار عندما يكون عملًا يرجو الإصلاح

---

[112] الزلزلة 7، 8.

أو بلوغ الحلّ، أو صدّ خطر يحاك ضدّ الشّرف والدين والقيم الحميدة والفضائل الخيِّرة؛ ولهذا تُعد العُدّة إرادة من أجل تحرير الأرض، وصون العرض، وإرهاب الذين يريدون الجبن سائدًا بين النَّاس.

وعليه: فإنَّ النّصر لا تُحقّقه المعدات الحربيّة مهما تطوّرت، بل النّصر عبر التّاريخ يحقّقه من يقرّر مع التنفيذ أنّ قبول الموت في الميدان هو المطلب الرَّئيس؛ ولهذا الشعوب التي حرّرت أراضيها حرّرتها بهذا القرار حتّى ولو اتّخذت سلاحها الحجارة[113]، والعرب تقول: من يطلب الموت في سبيل الكرامة تكتب له الحياة.

ومع أنَّ الموت مخلوقٌ مثل غيره من المخلوقات العظيمة، فإنَّه ليس في حاجة لمن يطلبه، فهو آتٍ يقينا، وله مهمّة كتبت عليه: موت الأحياء؛ ولهذا مهما بلغ التكاثر فلا مغالبة للموت، ولا حذر منه، فالحذر إن اتخذ حيطة لا يكون إلّا مما يؤدّي إلى التهلكة أو التقاتل، أمَّا الموت آتٍ لا محالة سلما وحربا، {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ}[114].

---

[113] عقيل حسين عقيل، الرّفض استشعار حرية، شركة الملتقى، بيروت، 2011، ص 184 . 186.

[114] النساء 78.

فالموت عدل من الله تعالى، فلا أحد ينوب فيه عن الغير، ولا يؤخذ أحدا بدلًا من آخر، ولا يكون على حساب آخر، ولا يأتي في غير موعده، قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[115].

والموت لا يخيف، بل الذي يخيف المرض، والظلم، والعدوان، والسّلب والنهب؛ ولهذا يسعى الإنسان إلى تفادي وتجنب كلّ ما يؤدّي إلى ألمٍ، ولكن عندما يصبح الموت حقّا فالمطالبة به ضرورة، والإقدام على ما يخلّص من المؤلم والمؤذي حتى وإن كان موتا ينبغي الإقدام عليه شريطة أن يكون في مرضاة الله تعالى.

وعليه: فإنَّ الموت ملاحِقٌ، ولا يلاحق إلّا الأحياء؛ ولهذا بما أنَّكَ على قيد الحياة وجودا، فوجودك على قيدها يمر بمرحلتين:

الأولى: وجودك حيًّا.

الثانية: وجودك عدمًا.

ولكن لا عدم إلّا بعد الموت.

[115] الرحمن 26.

العَدمُ

العَدمُ واحد، ويلحق الموجودات منذ ساعة الموت، وهو فعل لا تتعدّد مصادر أوامره، فلا يكون إلّا من الواحد الذي خلق الحياة، ثمّ يلاحقها عدمًا، والعدمُ: لا يكون إلّا بعد الموت، يلاحق الأموات والموجودات على الإطلاق ولو كانت جمادا فيجعلها بالية، وكأنّها جزءٌ من التراب الذي خلقت منه أشياء.

والعدم أثر وجود شيء، وليس الوجود في ذاته، سواء أكان ذلك الأثر يدلّ على أثر الأحياء، أم أنّه يدلّ على أثر الأموات والأشياء المنتهية.

والعدم لم يكن الموت، ولم يكن النّهاية؛ فالموت فعل بيد الخالق، والنّهاية توقّف الفعل أو المقدرة، وليس بالضّرورة توقّف الحياة.

فبصمات الأحياء وصورهم وعيّنات دمائهم لا تزيد عن كونها أثر (عدم) يدلّ على شيء، وليس الشيء ذاته. وكذلك الرّفات البالي لأيّ شيء هو أثر (عدم) لشيء كان موجودا على قيد الحياة.

والعدم لم يكن مصدر خلق الأحياء كما يراه البعض، بل هو ما يؤول إليه مصيرهم، وهو الفعل المتحقّق أثرا، فالعدم لم يكن فعل الموت، ولا فعل الإنهاء، ولا يكون الوجود منه. بل على العكس من ذلك لا يكون العدم إلّا من وجودٍ. فلو لم يكن الوجود ما كان العدم؛ فالعدم هو الفعل المترتّب على الوجود الذي لابدّ من نهايته أو موته وعدمه.

ولأنّ لكلّ بداية نهاية؛ فالوجود ليس له بدّ إلّا النّهاية، وبعد النّهاية يصبح الزّمن كفيلا بجعله عدما. وإلّا هل هناك من باقٍ غير الباقي الذي يجعل من الوجود عدمًا؟

ولأنّ العدم يستظلّ بظلّ الوجود، فهو يلاحق الموجودات تحت ظلّه لحظة انتهائها من المشاهدة المباشرة، ومع ذلك، فالوجود هو: القاعدة، والعدم هو: الاستثناء. {قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}[116]، فتلك العظام التي كانت وجودا على قيد الحياة، أصبحت رميمًا باليًا لا علاقة له بالحياة إلّا البعث.

فالوجود كونه قاعدة؛ لأنّ صفته البقاء، والعدم كونه استثناء؛ لأنّ صفته الانتهاء، {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}[117].

ومع أنَّ الوجود الأوّل خُلق من لا شيء، بفعل الخالق، فإنَّ من بعده كثيرا من المخلوقات خلقت من أشياء كما هو حال الإنسان وغيره كثير، {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[118]، ثمّ كثير من الوجود خُلق تكاثرا، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[119].

وعليه: فلا (حياة) إلّا عن خَلق، ولا (إحياء) إلّا من عدم، {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[120]؛ ولذلك؛ فالوجود سابق على العدم، والحياة سابقة على الإحياء.

ومع أنَّ مفهوم العدم يختلف عن مفهوم الوجود، لكن هناك علاقة وثيقة بينهما؛ فالعدم الذي يلاحق الوجود الحي ليجعله رميما باليا، لابدّ أن يكون فعله على قيد الحياة موجودا، وإلّا كيف له بجعله عدما؟

---

[116] يس 78، 79.

[117] العنكبوت 64.

[118] يس 36.

[119] الروم 20.

[120] الروم 27.

ولأنَّ العدم على قيد الحياة وجود، فلا يمكن أن يكون نقيضا للوجود بأسره؛ ولذلك فالوجود مفهوم مطلق يحتوي كلّ شيء على قيد الحياة، بما فيها العدم، ومن هنا، فالعدم ليس نقيض الوجود، بل هو جزء منه، وإلّا هل هناك من يرى لا وجود للعدم؟

ولأنَّ للعدم أثرا، إذن: فهو موجود، وإلّا هل هناك من يرى أنَّ وجود الأثر لا يدل على وجودٍ؟

ولأنّ العدم موجود؛ فلا يمكن أن يكون ذا مفهوم مضادٍّ لما هو عليه (الوجود)، ولتبيان ذلك، أتساءل:

ما هو دليل إثبات الوجود؟

ما هو دليل إثبات العدم؟

الوجود والعدم لا مادّة حيث لا يشاهدان، ولأنّهما كذلك؛ فهل يظنّ البعض أنّهما غير موجودين؟ ولكن إن اعترفنا بوجودهما، فماذا يعني؟ وإن اعترفنا بوجود أحدهما، وليكن الوجود، فأين الآخر (العدم)؟ أي: هل انتهى العدم من الوجود، ولن نخشاه بعد اليوم أبدا؟ أم أنّه باقٍ يلاحق الأحياء أينما حلّوا؟

أقول: كيف نقبل بأنّ للحياة الدّنيا ركائز رئيسة وعلى رأسها الوجود والعدم، ثمّ نأتي لنقول: العدم عكس الوجود؟

فإن قبلنا بذلك، فإنّنا كمن يقول لا وجود (لا حياة). بمعنى: وكأنّه أينما وُجد وجود عُدِم.

ولأنَّ لكلٍّ من الوجود والعدم أثره؛ إذن: فكلاهما موجود؛ فكما خَلق الخالق الوجود، خلق العدم، ولكلّ فعله، وبما أنّهما مخلوقان؛ إذن: فهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة.

وماذا يعني أنّهما الموجودان الباقيان ما بقيت الحياة؟

يعني: أنّ وجودهما في الحياة الدّنيا مؤقّت؛ ذلك لأنَّ الحياة برمّتها زائلة، {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[121]. ولأنّها الزائلة وهما جزاءٌ منها، إذن: لا شكّ أنّهما الزائلان.

ولأنّ لكلّ منهما أثره على قيد الحياة، حيث أثر الوجود البقاء (بقاء المخلوقات)، وأثر العدم الفناء (رفات الفانيات)، إذن: لا شكّ أنَّ لكلّ منهما وجودًا.

وقد يتساءل البعض:

ألا يعني ذلك كمن يقول: العدم أصبح وجودا؟

لا شكّ أنّ العدم وجود دالّ على وجود الفانيات، ولكنّه لم يكن الوجود بأسره، بل هو جزء منه؛ ولذلك فالوجود عكسه الفناء وليس العدم. أي: إنَّ أثر الوجود بأسره هو الخلائق، أمّا العدم فهو أثر رفات تلك الخلائق وما تتركه من بصمة.

ولأنّ العدم لو لم يكن موجودا ما ترك أثرا؛ إذن: فالقاعدة المنطقية:

.كلّ أثر موجود

. العدم أثر

---

[121] الرّعد 26.

ـ إذن: العدم موجود

ـ ولكن ماذا يعني أنّه موجود؟

يعني: أنّ العدم فعل من أفعال الوجود، فلو لم يكن الوجود ما كان العدم؛ ولذلك فالعدم مرتبط بالوجود ولا ينفصل عنه، فحيث ما حلّ الوجود حلّ، أي: لو لم يكن الوجود، هل يمكن أن يكون العدم؟ ولهذا؛ فالعدم وجود، ولكنّه لم يكن الوجود.

فالعدم مع أنَّ وجوده متحقّق في الحياة الدّنيا، فإنَّه لن يكون كذلك في الحياة الباقية؛ ممّا يجعل بقاء الوجود في تلك الحياة بلا عدم.

ولأنّ الحياة الدّنيا مؤسّسة على البداية والنّهاية؛ فهي زائلة، ولأنّها زائلة؛ فلا وجود ولا عدم.

وعليه:

فالوجود والعدم حقيقة لا فارق فيها، فحيث ما حلّ الوجود حلّ العدم، وكذلك حينما ينتهي الوجود ينتهي العدم، وفقا للقاعدة العلمية: (لكل بداية نهاية).

ولذا؛ فلو لم يكن للعدم وجود ما كان للحياة نهاية، وبما أنّ العدم موجود وله نهاية، إذن: لا يمكن أن يكون هو النّهاية، بل النّهاية عدم العدم، الذي من بعده تستمرّ الحياة.

ولذلك؛ فالوجود لم يُخلق من العدم، وكذلك العدم لم يُخلق من الوجود، ولكن كليهما مخلوقٌ لأداء مهمّة الحياة المؤسّسة على البقاء الفاني. ولو لم يكن الوجود ما كان للعدم شأن، ولو لم يكن العدم ما كان للوجود شأن. ومن ثمّ؛ فحيثما كان الوجود بالقوّة، كان العدم بالضّرورة.

فالوجود والعدم خُلقا على القوّة، ولم يكونا موضع اختيار، فمتى ما حان وقت الخلق يصبح المخلوق وجودا، ومتى ما وجب وقت انعدامه فلا يكون إلّا عدما.

ولأنّ الوجود عن غير طلب ولا رغبة؛ فكذلك العدم يتحقّق بالقوّة عن غير طلب ولا رغبة.

ولذلك؛ فالقاعدة:

كلّ وجود يلازمه عدم

الكون وجود

إذن: الكون يلازمه عدم

ولذلك؛ فالحياة الدّنيا ليست وجودا مجرّدا، بل وجودٌ وعدمٌ، ولهذا؛ فهي المؤسّسة على الفناء.

ولأنّنا نعلم ذلك؛ فعلينا أن نفكّر في كلّ شيء أكثر من مرّة، قبل أن نقدم على فعل شيء، ولأنّنا مخلوقون؛ فعلينا أن نفكّر وجودا وعدما، ولا نبقي على غير صفاتنا التي بها تميّزنا خلقا، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[122].

ولأنّنا على قيد الوجود أحياء؛ فإنّنا لن نكون في حاجة لمن يثبت وجودنا، فإن كنّا في حاجة لمن يثبت وجودنا؛ فغيرنا لن يعدّنا إلّا عدما؛ ولذلك لا ينبغي لنا أن نكون كما تنصّ عليه مقولة الفيلسوف ديكارت (أنا أفكر، إذن: أنا موجود)[123]. بل ينبغي أن تكون مقولتنا: (أنا موجود،

---

[122] التين 4.

[123] ديكارت: مقال عن النهج، ترجمة محمود الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985، ص 190

إذن: أنا أفكر)، وبمقارنة المقولتين نتبيّن الفارق بينهما، فالمقولة الأولى: (أنا أفكر إذن: أنا موجود) تضع التفكير شرطا للوجود، وكأنّ الذي لا يفكر غير موجودٍ، فالكون والوجود والعدم والأنهار والمحيطات بالرّغم من وجودها لكنّها لا تفكّر؛ فهل عدم مقدرتها على التفكير يلغي وجودها؟

أمّا المقولة الثانية: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر) تضع الوجود شرطا للتفكير، أي: لو لم يكن ديكارت موجودا ما فكّر فيما يفكّر فيه؛ ولذا فمن يكون موجودا ولا يفكّر فلا يعد عقله إلّا عدما.

أمّا قوله: (أنا أكون، أنا موجود I am, I exist)، فهو كمن يقول: لا أشكّ في وجودي، وهذه المقولة مع أنّها جاءت سابقة على قوله: (أنا موجود، إذن: أنا أفكر)، فإنَّها أكثر وثوقا؛ فالموجود لو لم يكن موجودا ما سُئل عن وجوده، ممّا يدعو الموجود إلى عدم الإجابة، ليكون امتناعه عنها أكبر دليل على وجوده، ومن ثمّ، يعوّض الوقت الذي أضاعه زمن استماعه لذلك السؤال، ويصبح الوقت بالنسبة إليه لم يعد صفرا.

أي: بعد أن أنشأكم الله النشأة الأولى خلقا زوجيّا في أرض الجنّة المرتقة مع السّماوات، ثم تكاثرا تزاوجيًّا في الأرض الدّنيا، ثمّ موتا فرديا يعيدكم في الأرض الدّنيا عدما ولا استثناء، ثمّ ينشئكم بعثا في نشوء آخر، لحياة سرمدية حيث البقاء الذي لا موت من بعده، {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى}[124]، وقال تعالى: {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}[125].

[124] النجم 47.

[125] الواقعة 61.

إذن: الموت لا يخيف؛ إذ لا أحدَ يستطيع أن يفعل لك شيئا أكثر ممّا يفعله، وهو لا يُفعل إلّا مرّة واحدة، ولا يتكرّر، ولا مفرّ منه، وبموته تنبعث الحياة من جديد، وتبقى من بعده وجودا ولا موت.

موت الموت

الموت مخلوق، ولأنَّه مخلوقٌ فلابدَّ أن ينتهي بعد أن تنتهي مهمّته (موت الأحياء)، ولأنّ الموت واحدٌ من الواحديات المخلوقة فلابدّ أن تكون له بداية ونهاية، بداية الموت الخلق الزوجي، قال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[126]، فـ(من كلِّ شيء) جاءت مطلقة، أي: من كلِّ شيء دون تحديد، ومن هنا جاءت (الحياة والموت) خلقًا زوجيًّا؛ وهذا يعني: لا واحدية إلّا لله تعالى، أمَّا من بعده فالخلق تأسّس على الزوجية، ثمّ التكاثر من الأزواجِ.

وعليه: فمن بعد موت الموت، فلا وجود إلّا لله الواحد القهَّار. خالق الحياة والقاضي عليها، وخالق الموت والقاضي عليه.

ولأنّه وحده يحيي ويميت، فلابدَّ أن يميت الحياة والموت معًا، ثمّ إنَّهُ يبعث الحياة الباقية ولا يبعث الموت تلاحقه.

والموت إنهاء حياة ووجود عدم، أمّا موت الموت؛ فهو إنهاء الحياة، ولذا؛ فالموت فعل تحقيق العدم وجودا.

ومع أنّ الموت يواجه الحياة، لكنّه لا يواجه الوجود، بل هو جزء منه، وإلّا هل هناك من ينكر وجود الموت على قيد الحياة وجودا؟

ولأنّها الحياة الدّنيا؛ فهي (حياة وموت) وهذا يعني: (أنّ نصف الحياة موت)، ولو كانت الحياة الدنيا طلبا فمن يطلبها سواء أكان يدري أم لا يدري؛ فهو يطلب الموت، حيث لا حياة إلّا والموت يرافقها.

فالموت والحياة كفّتا الوجود، والوجود على مستوى الشيء واللاشيء يمكن أن يكون أحياء، ويمكن أن يكون معدومين؛ فوجود

---

[126] الذاريات 49.

الأحياء وجود خَلق، ووجود العدم وجود موت؛ ولذلك فالخلق أثره وجود الأحياء من كلّ نوع، والعدم أثره وجود الأموات من كلّ الأنواع.

وسيبقى الموت حيّا ما بقيت الحياة، وسيبقى الأموات أثرا ما بقي العدم، إلّا الموت عندما يموت لا يترك أثرا؛ ذلك لأنّ الموت لم يكن أثرا إلّا على الأحياء، في حين أنّ العدم لا يكون أثرا إلّا على الأموات، فكما أنَّ النّهاية مصير الحياة الدّنيا التي تشكّل 50% من الوجود؛ فكذلك النّهاية مصير الموت الذي يشكّل نصف الوجود الآخر.

فعندما تكون الحياة الدنيا تساوي 50% من الوجود، يكون الموت مساويا 50% منه، وعندما يصبح العدم 100% وجودا، تكون الحياة مساوية صفرا. وفي المقابل عندما تكون الحياة الآخرة 100% وجودا يصبح العدم صفرا؛ إذ لا موت.

ومن ثمّ فالموت لا يخيف؛ إذ لا أحدَ يستطيع أن يفعل لك شيئا أكثر ممّا يفعله، وهو لا يُفعل إلّا مرّة واحدة، ولا يتكرّر، ولا مفرّ منه، وبموته تنبعث الحياة من جديد، وتبقى من بعده وجودا ولا موت.

ولأنّ الحياة الدنيا لا تساوي إلّا 50% من البقاء، في مقابل 50% موت، إذن: فالحياة الدنيا، جاءت منقوصة: (فاقدة لمعطيات البقاء). ولأنّها المنقوصة فَسُمِّيتْ (الدُّنيا) أي: الحياة السُّفلى، {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[127].

ولذا؛ القاعدة المنطقية تقول:

كل مخلوق فانٍ

[127] الأعلى 17.

الموت مخلوق

إذن الموت فانٍ

والتساؤل:

إذا الموت قضى على الحياة فمن الذي سيقضي على الموت؟

لا مخلوق إلّا ومن ورائه الخالق، والخالق هو الذي: {يُحْيِي وَيُمِيتُ}[128].

ولأنَّ الحياة مخلوقة والموت مخلوق، وأنّ لكل مخلوق بداية ونهاية؛ إذن: فلا مفرّ للموت من الموت، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[129].

وعليه:

فالخَلق فعل تسبقه هيئة لصورة لم تكن فأصبحت قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهو وجود ما لم يكن موجودا، سواء أكان كونا بأسره، أم شيئا منه، (حيّزا أم فراغا أم حيويّة أم مجرات أم طاقة أم كواكب ونجوما، أم أنّه خَلق من هذه الأجزاء كما هو حال الأزواج التي منها آدم وزوجه).

ولأنَّ الخلق فعل الخالق؛ فهو المتحقّق على المشيئة دون رأي لمخلوق في خَلقه، وهنا تكمن الكينونة، التي وجُدت المخلوقات عليها هي كما هي، ومع أنّ الخَلق مؤسّس على فعل الكينونة (كن)، ولكن للصّيرورة وجود أيضا، فأبونا آدم وزوجه اللذان خُلقا بكينونة الإنبات من الأرض، خُلقا في أحسن تقويم، الذي فيه صَنعة الحُسن لا تتغيّر.

---

[128] البقرة 258.

[129] الرحمن 26، 27.

أمّا الأخلاق والقيم والفضائل فتكتسب وتُعلّم وتتجسّد في القول والعمل والسّلوك، وقد لا تتجسّد، وهنا تكمن العلّة، التي تؤدّي بمن يتخلّى عن القيم والفضائل إلى الانحدار والدّونية، التي لا تليق بمن خُلق على الارتقاء قمّة.

ولذلك؛ ظلّ آدم وزوجه على الرّفعة الخلقيّة حتى أقدما على عمل المعصية؛ فانحدرا هبوطا من تلك الجنّة على الأرض الدّنيا التي جُرِّدت من الصّفات التي كانت عليها عُليا.

ومن هنا أصبح الصّعود للقمّة مطلبا وأملا لمن فقد تلك المكانة، وبقي الخَلق الحَسن على ما هو عليه حُسنا، ولكن الأخلاق أصبحت على الاهتزاز تتبدّل من حَسنٍ إلى سيء، وكذلك من سيء إلى حَسن؛ {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[130]، فآدم وزوجه شاءا أن يؤمنا وأمل العودة إلى تلك الجنّة لم يفارقهما، ولكن بنيهم اختلفوا، بل تخالفوا على ما يؤدّي إلى الارتقاء، وما يؤدّي إلى الدّونية، حتى بلغ الاقتتال بينهم أشدّه، ومع ذلك فالإصلاح بين المختلفين والمتخالفين لم ينقطع، وكذلك العفو والصفح ظلّا جنبا إلى جنب مع القصاص الحقّ.

فبنو آدم بعد أن هدأت أنفسهم بالأنباء والرّسالات بدأوا يتذكّرون ما يؤلم، ويعملون على تفاديه اتعاظا، ويتدبّرون أمورهم تحدّيا للعوز والحاجة، ويفكّرون فيما يجب ارتقاء، ويسعون إليه عملا؛ فنظروا إلى الخَلق وهم يتأمّلون فيه كيف خُلق، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[131]، حتى عرفوا أنّ الخَلق لم يكن في دائرة الممكن المتوقَّع وغير

[130] الكهف 29.

[131] الغاشية 17.

المتوقَّع؛ فاستطاعوا أن يميّزوا بين الصّعب والمستحيل؛ فالصّعب قبلوا بتحدّيه ساعة بساعة، أمّا المستحيل؛ فهو ما يحول بينهم وإمكانية فعله.

ولأنّه كذلك؛ فلا يُفعل إلّا فعلا إذ لا إمكانية لعمله؛ فالعمل في دائرة الممكن يتطلّب جهدا لينجز، أمّا الفعل فلا يكون إلّا بالأمر النّافذ، والأمر النّافذ لا يكون إلّا من الفعّال له، ومن هنا، يصبح المستحيل مستحيلا.

إنَّ العلاقة بين الخَلق والمستحيل هي: علاقة وجود الشيء من لاشيء، ثمّ وجود المستحيل خلقا من الشيء المستحيل (خَلق الشيء من الشيء) كما هو خلق الأرض، وخلق الأزواج منها، ثمّ خلق التكاثر من التزاوج (شيء مستحيل من شيء مستحيل) حيث لا إمكانية لخلق ما يُخلق.

ولهذا؛ فلا خَلق إلّا ومن ورائه خالق، والخالق لا يُمكنه أن يَخلقَ نفسه؛ فلو قبلنا بخلقه لنفسه؛ فلا استغراب أن يخلق غيره، فالكون الذي قال البعض عنه: إنّه خَلق نفسه ولا خالق من ورائه؛ فلو كان كذلك، لكان على المقدرة التي تجعله يخلق غيره.

ومن ثمّ؛ فالخالق يَخلق ولا يُخلق. ومن يُخلق، سيظل جاهلا بقواعد الخلق التي خُلق عليها؛ ذلك لأنّ قواعد خلق المخلوق تسبقه؛ فلو لم تكن ما كان، وهي التي لا تكون إلّا بيد الخالق، فالمخلوق بإمكانه أن يفكّر في نفسه وفي غيره، ولكن التفكير في النّفس والغير لا يزيد عن كونه تفكيرا داخل دائرة الممكن التي إن تمكّن منها الإنسان تمكّن من معرفة المستحيل إعجازا، ومع ذلك فآفاق المعرفة مفتّحة، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى

الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[132]، أي: لا ينبغي للتفكير الإنساني أن يتوقّف عند مشاهدة الإبل (الكائن المخلوق)، بل عليهم أن ينظروا إلى الكيفية التي خُلقت عليها، فعليهم أن يفكّروا ويتأملوا حتى يبلغوا المستحيل، فبلوغ المستحيل ليس بمستحيل، بل المستحيل لا يُخترق، ولا يتمكّن المخلوق من خلقه؛ ذلك لأنّ المستحيل لا يُخلق إلّا فعلا (إذ لا جهد يبذل)، أمّا الممكن فيُخلق عملا؛ (إذ الجهد يبذل).

فقوله تعالى: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) قول استفهامي (الاستفهام في هذه الآية استفهام إنكاري، بمعنى ما الذي يمنعكم من النظر في خلق الإبل؟)، أي: لِمَ لا تنظرون إلى الكيفية التي خُلقت عليها الكائنات التي بين أيديكم؟ أي: انظروا حتى تروا المعجزات، واعملوا حتى تقفوا عاجزين، وحينها تتيقّنون بأنّه لا إمكانية أن يخلق المخلوق نفسه.

ولذلك؛ فأوّل ما يجب أن يفكّر فيه العاقل: النّظر إلى الخَلق والتأمّل فيه بلا حدود، حتى تُدرك الكيفيّة التي عليها المخلوقات؛ لتُستثمر بما يفيد ويمكّن من الارتقاء، ومع ذلك فمهما نظرنا إلى المخلوقات أو الكائنات الحيّة التي منها الإبل، ستظل الكيفيّة التي خُلقت عليها علم غيب وبلوغه مستحيل، ولكن لأجل المعرفة ينبغي لنا أن ننظر، وهو عمل العقل الذي لا ينبغي له أن يقف عند حدود المشاهد، بل ينبغي أن يتجاوزه إلى معرفة الملاحظ والمجرّد (الكيفيّة)؛ ولذلك فلا ينبغي أن يوضع سقف على العقل والتفكير الإنساني، فالله لو شاء للسقف أن يوضع لوضعه، ولكنّ الله جعله على التخيير؛ فلا إكراه، بل يجب أن يمكّن الإنسان من المعرفة الواسعة، ويترك له الاختيار، ومع ذلك فإن اختار ما يسيء لخَلقه؛ فالعيب لا يلحق إلّا من لم يضع البيّنة بين يديه بيّنة.

---

[132] الغاشية 17.

ومع أنّ معرفة الكيفيّة الخَلقيّة أمر مستحيل، فإنَّ النّظر إليها بأعمال العقل يمكّن الإنسان من معرفة المزيد الذي يحفّز على البحث بلا توقّف، ويدفع إلى الارتقاء تدبّرا.

ولأنّ النّظر إلى الكيفيّة الخلقية يُمكّن من معرفة المستحيل؛ فكذلك النّظر إلى الكيفيّة التي بها رُفعت السّماء يدفع إلى كلّ ما يمكّن من الارتقاء، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}[133]. ولأنّ علاقة الوجود البشري مع الوجود الخلقي هي:

علاقة خَلق (مستحيل)، ونشوء (نمو)، وارتقاء (ممكن)، إذن: فالنّظر إلى الشيء ليس هو الغاية، بل الغاية أن يتدبّر الإنسان أمره عن معرفة وبيّنة؛ ولهذا وجب النّظر إلى الكيفيّة التي بها رُفعت السّماء، فالنّظر إلى الكيفيّة التي بها رُفعت يمكّن الإنسان من معرفة المزيد استكشافا، أي: معرفة الكيفيّة متى ما ألمّ بها الإنسان تمكّن من الصّعود وبلوغ المزيد من الارتقاء؛ إذ لا موانع في دائرة الممكن أمام المقدرة، أي: بما أنَّ بني آدم يمتلكون المقدرة؛ فليرتقوا إلى السّماء بلا تردّد، ومتى ما عرفوا كيفيّة الارتقاء عرفوا إمكانية المزيد منه حتى يبلغوا معطيات ذلك الانفتاق العظيم، ومعطيات كيفيّة رتقه من جديد، وحينها سيكتشفون ما لم يسبق لهم اكتشافه؛ فلينظروا إلى السّماء، ثمّ ينظروا إلى الكيفيّة التي بها خُلقت وارتقت إلى هناك بعيدا عن الأرض التي فتقت منها. فالنّظر إلى الكيفية التي بها رُفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي بها فُتقت السّماوات والأراضين أكوانا، والتي عندما يتمّ التعرّف عليها يصبح الارتقاء قمّة متجاوزا لإحداث النُّقلة المأمولة.

---

[133] الغاشية 17 . 20.

ومن ثمّ؛ فلا داعي للتأخّر، بل ينبغي لنا الإسراع بلا تسرّع، والنّظر في الكيفيّة التي رَفعت السّماء الدّنيا عن الأرض الدّنيا، كما رفعت بقية السّماوات والأراضين طباقا، فلا ينبغي للإنسان أن يغفل عن معرفة الكيفية التي عليها الخَلق (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)، ولا يغفل عن النّظر إلى الكيفيّة التي بها تمّ الارتفاع (وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)، أي: لا ينبغي له أن يغفل عمّا يمكّنه من الارتفاع عن كلّ دونية؛ ذلك لأنَّ التفكير فيما يؤدّي إلى الارتفاع يمكّن من معرفة ما يفيد وينفع ارتقاء.

إنَّ النّظر إلى الكيفيّة التي رَفعت السّماء يُمكّن من معرفة الكيفيّة التي بها يتمّ تجاوز الجاذبيات جاذبية بعد جاذبية، فهي لم تكن شيئا مستحيلا، حتى وإن كانت على الصّعوبة؛ ولذلك فالنّظر إلى الكيفيّة يُمكّن من تحدّي الصّعاب التي جاء خلقها نعمة للعقل البشري؛ أي: لو لم تكن الصّعوبات لكان مستوى العقل الآدمي مستوى حيوانيا، لا يفكّر إلّا فيما يشبع نهمه، بمعنى: لو لم تكن الصّعاب ما كان التذكّر واعظا، ولا التدبّر موقظا، ولا التفكّر مرشدا.

ولأنّ العقل الإنساني يمكّن من الفُسحة في كيفية الخَلق والنّشوء والارتقاء؛ فهو الممكن من معرفة ما يؤسّس للعمل أو ينشئه عملا، ولكن يظل عقل الإنسان في حاجة لما ينبهه ويستفزّه تذكّرا وتدبّرا وتفكّرا؛ ولهذا جاء الخَلق مشاهدا وملاحظا حتى يُرى ويُنظر إليه دون التوقّف عنده وكأنّه النّهاية، بل وجوده مشاهدٌ وملاحظٌ جاء محفّزا على ما يمكّن من تجاوزه بناء وإعمارا، ولهذا؛ فالنّظر إلى كيفية خلق الإبل يمكّن من معرفة المستحيل الذي لا يكون إلّا بفعل الخالق، والنّظر إلى كيفية رفع السّماء يمكّن من معرفة قدرة الخالق، وما فسحه من آفاقٍ أمام العقل البشري إن أراد ارتقاء، وهنا تكمن العلاقة بين الممكن الصّعب والمستحيل؛

فالمستحيل (ما لم يتمّ بلوغه) بالرّغم من فسح كلّ شيء أمام العقل البشري، أمّا الصّعب: فهو الممكن بالرّغم من صعوبته المحفّزة على قبول التحدّي؛ ولذلك فالنّظر إلى السّماء كيف رُفعت، نظر إلى (مستحيل وممكن في وقت واحد)، ولهذا؛ بدأ الإنسان مؤخّرا بغزو الفضاء، وهو يعلم أنّ أمامه المزيد ممّا هو أعظم ارتقاء.

أمّا النّظر إلى كيف نُصبت الجبال (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) فيُمكّن من معرفة ما يرشد إلى البناء والإعمار، أي: يُمكّن من علم الهندسة في التصميم والعمران؛ فقوله دلالة: أفلا ينظرون إلى الجبال كيف نصبت؟ هو قول يُمكِّن من التدبّر، أي: وكأنّه يقول: عليكم بمعرفة الكيفيّة التي عليها أنشئت الجبال؛ فأنشئوا ما شئتم من بيوت، وصمّموا ما تشاؤون؛ فالنّشوء في دائرة الممكن وإن كان صعبا؛ فهو ليس بمستحيل؛ فانظروا إلى الجبال، واجعلوا جبالا من الأبراج إن استطعتم. وفوق ذلك، لا ينبغي لنا الإغفال عن العلاقة وكيفيّتها بين رفع السّماء ونصب الجبال، أي: لا ينبغي لنا التوقّف عند رؤية الجبال، ولا السّماء، بل يجب التفكّر فيهما وكيف خُلقا ورُفعا ونُصبا؟ ثمّ التفكير في الكيفية التي بها سُطحت الأرض: (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) حتى تعرفوا كيف تعمروها وتستخلفوا فيها علما وحضارة وارتقاء؟ وكيف تنشئون فيها حياة تمهّد لعلاقات إنسانية مؤسّسة على فضائل وقيم وعمل منتجٍ يمكّن من إحداث النُّقلة ونيل المأمول.

إنَّ النّظر في أيّة كيفية هو نظر تفحّص من أجل التبيّن الذي به تتمّ المعرفة الواعية بما هو كائن وما يجب أن يكون، ممّا يستدعي ملكات العقل إلى التفكير الممكِّن من صياغة فروض أو تساؤلات تمكّن من معرفة الجديد وإنتاج ما هو أجد؛ ولذلك فمعرفة كيف سُطِحت الأرض معرفة

علم وتخطيط واقتصاد وبناء وإعمار وإنتاج، ومنافسة لا تغفل عن أهمية القيم في تحقيق كرامة الإنسان.

فمتى ما عرف الإنسان الكيفية التي بها سُطِحت الأرض، عرف الكيفيّة التي بها يتمكّن من العمل الذي لا مستحيل أمامه سوى المستحيل، الذي بمعرفته يرتقي الإنسان إلى معرفة الخالق إعجازا؛ إذ لا خَلق إلّا بفعل الخالق.

ولأنّ الخَلق يُفعل؛ فهو الذي يُفعل بغير جهدٍ؛ ولذلك فالخالق يفعل ما يشاء كيفما يشاء أمرا، أمّا المفعول فهو الذي لا رأي له حتى في وجوده؛ ولذلك فلا وجود لشيء إلا بفعل ليس بيده.

ولأنّ لكلّ شيء صفة؛ فصفة الخَالق لا يمكن أن تكون صفة المخلوق؛ ولهذا فلا يمكن أن يكون المخلوق خَالقا؛ لأنَّ الخَلق ليس من صفاته، والخالق لا يُخلق لأنّ صفة الخَلق لا تكون إلّا بأمره، ومن يرى غير ذلك اجتهادا فَلِمَ لم يكن خالقا لنفسه؟ ولِمَ لا يخلق غيره؟

ولأنّ لكلّ مخلوق صفة خُلق عليها، وتميّز بها؛ فلا شكّ أنّه سيظل عليها متميّزا عن غيره كما غيره يتميّز عنه صفة وخاصيّة؛ ولهذا سيظل للكون الدّنيوي صفة تختلف عن صفات الأكوان الأخرى التي تعلوه طباقا، بمعنى: سيظل كوننا على صفته وإن حدثت فيه تغيّرات أنقصت من حجم ظلمته أم زادتها اتساعا، أو أنقصت من عدد مجراته أم زادتها عددا، وهكذا يمكن أن يصبح الفراغ بين تمدّد وانكماش ولكلّ وظيفته وجود.

ولأنَّ لكلّ مخلوق هيئة، ولا هيئة للخالق؛ فكان الكون على هيئته يتمدّد متسارعا حتى يُرسم شكله وفقا لما هيأ عليه كونا، أي: لو بلغ

الكون حدود وجوده كونا، لرُسِم له الشكل الذي لا يكون إلّا على هيئته، ولهذا؛ فهيئة الخلق علم الخالق، أمّا هيئة ما يره المخلوق فهي في ذِهنه هيئة وستظل هيئة حتى تأخذ شكلا أو صورة بها تُدرك من قبل الغير.

والخالق لا يمكن أن يُخلق من عدم؛ فالعدم لا يكون إلّا وجودا حتى وإن كان رفاتا، فالمعدوم مفعول، والمفعول يفعله الفاعل؛ ولذلك فالمعدوم هو: من لم يكن على قيد الحياة وجودا، ولكنّه على قيد الوجود عدم، وهذا يدلّ على وجوده السَّابق قبل أن يصبح عدما بفعل الموت الذي لاحقه حتى النّهاية.

ومن هنا؛ لا يمكن أن يكون الخَلق من عدمٍ، بل الخَلق من لا شيء يذكر، أي: وجود ما لم يكن موجودا، سواء أكان مادّة أم ليس بمادّة، ولهذا؛ فالخَلق كيفية تظهر الهيئة في صورةٍ أو شكلٍ؛ فتلفت المخلوق العاقل لنفسه ثمّ لغيره ليأخذ بأسرار الخَلق في صناعة ما يمكن أن ييسّر له الحياة ارتقاء.

وبالنّظر لخلق الكون وفقا لِما تمّ اكتشافه وتيَسَّرَ للمعرفة فهو المخلوق الذي لا سيطرة له على نفسه، فهو كون متمدّد في تسارعه من أجل بلوغ النّهاية التي لم تكن من مكوّنات وجوده؛ فالكون لو كان خالقا لنفسه ما كان يتمدّد متسارعا تجاه نهايته.

فالكون لو كان خالقا لما كانت له البداية تمدّدا والنّهاية انكماشا، أو فتقا ورتقا، أو كما يقولون: انفجارا وتجمّدا، وحتى إن اختلفت الرؤى؛ فقد اتفق أصحابها من مفكّرين ومفسّرين وعلماء فيزياء وفلك على أنّ للكون بداية ونهاية؛ ولهذا نقول: خالق البداية والنّهاية سابق على خلقهما، ومن يكون بينهما خلقا، فلا يمكن له أن يكون خالقا، وهذا

بالتّمام حال الكون الذي لو لم يكن من ورائه خالق ما كان بين البداية تمدّدا والنّهاية انكماشا.

ولأنَّ الكون لم يكن خالقا لنفسه؛ فهو على علاقة بأكوان أخرى، أي: لو كان خالقا لنفسه ما وجدت أكوان إلى جانبه، وهي التي فُتقت منه وفُتق منها. أكوان تعدّدت والخالق واحد لا يتعدّد، إنّه الواحد الذي يُعد ولا يتعدّد؛ ذلك لأنّ الواحد (الخالق) لا سابق عليه، أمّا الواحد المتعدّد؛ فلا يكون إلّا والصّفر نقطة شروعه ارتقاء، أو لحظة فنائه انحدارا (بداية ونهاية)؛ ولذلك فلحظة الصّفر قبل كوننا كانت الرتق، ومن بعده ستكون لحظة الصّفر رتقا من جديد؛ ممّا يجعل لحظة الفتق بداية وجود متمدّد ولحظة الرّتق وجودا منكمشا.

ومن هنا، يتّضح جمال كوننا تمدّدا وانكماشا، فكلّ شيء فيه نراه كمالا نراه بعد نظرة لا يزيد عن كونه نقصا؛ لأنّ النّظر في الكيفية يختلف عن النّظر إلى الشّكل والصّورة، فمهما عظم شكل الكون أو صورته فلا يؤتمن جانبه؛ فهو المملوء براكين وصواعق وزلازل وشهب ومجرات ونار وظلمة وماء وسماء، إلى جانب شياطين الإنس والجنّ، مع وافر القلق والألم والوجع والخوف، ثمّ الموت.

ولهذا؛ فالحياة فيه يملؤها الرّعب والظّلم والعدوان، والسّلب والنّهب، والتّعب والملل واليأس، ومع ذلك فهو المهدّد بالزّوال الذي لا يكون إلّا فجأة قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً}[134]؛ ولأنّه كذلك فلا كمال فيه؛ ولهذا مهما تحقّقت فيه من آمال فهي ستكون منكسرة ما لم

[134] الأنعام 31.

ترتقِ بأصحابها إلى رتق السّماوات والأرض؛ لتكون الحياة عيشا رَغَدًا مع وافر النّعم المشبعة لكلّ الحاجات المتنوّعة.

ولذلك؛ فالحياة الدّنيا مع أنّها مملوءة بثروات ونعم، ولكنّها لا تكون ارتقاء إلّا بالعمل، ولهذا؛ بُعثَ الأنبياء والرّسل جميعهم من أجل العمل الصّالح، {وَقُلِ اعْمَلُوا}[135]، ومع ذلك فالحياة الدّنيا بداية ونهاية هي حياة ألم (ألم الولادة وألم الموت)، وسيظل الألم مستمرّا ومتسارعا مع استمرار تمدّد الكون وتسارعه، ولن يتوقّف ما لم يتوقّف تمدّد الكون المتسارع.

ولذلك؛ سيظل الكون متمدّدا حتى النّهاية التي يقف عندها الألم صفرا، وهي لا تكون إلّا بعلّة أو سبب، ولأنّها لا تكون إلّا بها؛ فهي متى ما حدثت وفّرت لنا حُكما بأنّ الكون لم يَخلق نفسه، بل خلقه الذي جعل له بداية صفريّة ونهاية صفريّة، وهي التي من بعدها ينكمش بملامسة ما يُعيده لرشده من حيث انفتق وتمدّد.

ولأنّ الكون لا يتوقّف ولا ينكمش عن تمدّده إلّا بعد بلوغه نقطة الصّفر التي متى ما استشعرها أو لامسها انكمش حتما، إذن: فليس له بدّ إلّا التوقّف أو الانكماش إلى نقطة البداية التي تعيده إلى الاستقرار بلا مخاوف، ومن ثمّ عندما يبدأ انكماش الكون فانكماشه سيزيح فراغا من خلفه، وفي المقابل سيترك فراغا من أمامه، ممّا يجعل ذات الحركة مؤثرة على بقية الأكوان انكماشا حتى تعود إلى نقاط رتقها التي انفتقت منها أكوانا، والتي من بعدها سيصبح الكون المرتق كونا عظيما. {يَوْمَ نَطْوِي

[135] التوبة 105.

السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[136].

ولأنّ الوجود لم يُخلق كلّه من لا شيء كما هو خَلق هيئة الكون؛ فهناك على الكثرة أشياء خُلقت نشوءا من الكون كما هو نشوء الأرض مكوّرة، ونشوء آدم وزوجه منها نباتا، {وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}[137]، ثمّ نشوء التكاثر تزاوجا، وكلّ هذه المخلوقات سواء أكانت من لا شيء أم من شيء قد أوجدت ثلاث دعائم تمكّن من معرفة الكيفية التي كان عليها المستحيل خَلقا (خلق الوجود من لا وجود)، والتي كان عليها الإعجاز نشوءا (خلق الشيء من الشيء)، والتي يكون عليها الممكن ارتقاء (بين كينونة وصيرورة)، فهذه الدّعائم تُمكّن من ربط العلاقة بين الخالق والمخلوق بما هو (مستحيل ومعجز وممكن).

ولأنَّ المستحيل هو خَلق بلا سابق (وجود لم يسبقه وجود)؛ فينبغي لنا النّظر إليه حتى بلوغه مستحيلا، وكذلك المعجز وهو خلق الشيء من الشيء ينبغي لنا النّظر إليه حتى بلوغه شيئا معجزا، أمّا الممكن فهو مَكمن الخوارق، فمن بلغه عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازا، ومن بقي في دائرة المتوقَّع؛ فلا إمكانية لبلوغ الخوارق التي في النّهاية لا تكون إلّا في دائرة الممكن.

---

[136] الأنبياء 104.

[137] نوح 17.

البعث

البعث: لا يكون إلّا لموجودٍ وإن كان أثرًا ورفاةً، وهو إحياءُ من قضى الموت عليهم، بغاية البقاء الدَّائم، والبعث فسحة المقارنة بين تلك الحياة الأولى (الدُّنيا)، وسعة الحياة الآخرة (العليا) التي تمَّ الإخبار عنها فكذَب من كذَب وصدَّق من صدَّق فآمن وسلَّم، قال تعالى: {وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[138]، هذه الآية وغيرها كثير ستكون شاهدة على من كذَّب ومن صدَّق وسلَّم وآمن؛ لتفتح صفحات الحساب (ثوابًا وعقابًا) دون أن يكون أحدٌ منهما غاية؛ لأنَّ الغاية البقاء الدَّائم، ولكن بعد أن تسدَّد الدّيون مصداقا لقوله تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[139].

وعليه: فإنَّ مفهوم الحياة لا يكون مرادفًا لمفهوم البعث مع أنَّ البعث إحياء؛ فالحياة خَلقٌ وجوديٌ، أمَّا البعثُ فإحياء وجود؛ ولهذا لا استغراب؛ أي: بمفهومنا البشري وليس بقدرة الله أيّهما أيسر أن تخلق الحياة ويخلق من ينبغي للحياة أن تسري فيهم؟ أم أن تبعث الحياة المخلوقة في وجودٍ ولو كان باليا؟ قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}[140]، بمعنى: أيَّهما أيسر أن يخلق التراب من لا شيء وجودا، وتخلق الأزواج منه، ثمّ تزاوجا يخلق البشر من نطفة، أم أنْ تبعث الروح حياة في أثرٍ كان على قيد الوجود حيًّا؟ قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى

---

[138] الحج 6، 7.

[139] الزلزلة، 7، 8.

[140] الروم 27.

فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}[141]

ومن ثمَّ فالبعث لا يكون إلّا لوجودٍ سواء أكان عدمًا أم لم يلحقه العدم بعد، أي: بعث الأرواح في المخلوقات لتصبح حيَّةً مصداقا لقوله تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ}[142]، بمعنى: بعثناكم أحياءً لتروا تلك الحقيقة التي بُعث بها الأنبياء والمرسلين فكان منكم المصدّقين الموحدين الطّائعين، وفي المقابل كان العصاة والكافرين، {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[143].

وعليه: تأسّس الوجود على خمسٍ:

1 . الحياة.

2 . الموت.

3 . العدم.

4 . موت الموت.

5 . البعث.

ولأنَّ كلَّ هذه الواحدات (واحدة لا تتعدّد وإن تعدَّد المستهدفين بها) هي حقائق معجزة، فلا تكون إلّا بيد الواحد؛ ولذا فلا واحدية إلّا من عند الواحد الأحدُ.

---

[141] القيامة 36 . 40.

[142] البقرة 56.

[143] المجادلة 6.

ومن هنا فالواحدية تستوجب الأخذ بالحقيقة التي إن أُخذ بها فلا خلاف، أي: الخلاف لا يكون إلّا بعدم الأخذ بالحقيقة (الواحديَّة). أي: مع أنَّ الواحد خَلق الاختلاف بين النَّاس تنوّعا، لكنّه فرض كلّ شيء لا خلاف عليه.

ولسائل أن يسأل:

بما أنَّ الواحد خلق كلّ شيء لا خلاف عليه، إذن: من أين جاء الخلاف؟

جاء من خَلقِ الزَّوجية (التسيير والتخيير)، فمن حيث التسيير الواحدية ثابتة؛ إذ لا خالق إلّا الواحد. أمّا من حيث التخيير؛ فلا إكراه بعد أن تبيّن الحقّ من الباطل مصداقا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[144]؛ ولذا فمن اتبع أمر الواحد أخذ بالحقِّ (الحق واحد)، ومن خالفه وعصاه أخذ بغيره (الباطل) وعلى الباطل خلاف، أي: يجب أن يكون الخلاف على الباطل، ولا ينبغي له أن يكون على الحقِّ، لأنَّ الحقَّ لا انحياز فيه لغيره، أمَّا الباطل فالانحياز فيه (إليه) لغير الحقِّ، والانحياز لغير الحق يجب الخلاف معه؛ ذلك لأنَّ الحقَّ لا مظالم، أمَّا الباطل فتملؤه المظالم، أي: إنَّ الحقّ إذا دخله الظُّلم يصبح مختلفا عن الحقّ بلا مظالم ممّا يجعل الحقَّ الواحد دائما بلا مظالم، وفي المقابل بالمظالم لن يعد الحقّ واحد.

وعليه: فالواحدية لم تكن مبدأ ولا حكمة ولا نظرية، بل الواحديَّة إنَّ الله واحد لا يتوحّد في شيء؛ ذلك لأنَّ الشيء من مخلوقاته، ومن ثمّ

[144] البقرة 256.

فالخالق لا يتوحّد فيما خلق، فعلى سبيل المثال: الكون المخلوق بالأمر كن سيظل مخلوقًا، أي: لا يمكن أن يرتقي إلى رفعة الخالق.

ولهذا؛ فالواحدية فرضيّة وجوبيَّة، فرضيَّة من حيث الإقرار من الواحد الأحد، ووجوبية من حيث الاتباع، أي: يفرضها الله كونها هي كما هي حقيقة، ويأخذ بها العبد المستهدف بها وهي من أجلهِ، فالذي يأخذ بها إرادة أخذ بالواحديّة، والذي ينكرها وهي الشاهدة عليه، فإنكاره لها لا يلغي وجودها حقيقة، وهو بمجرد أن ينكرّها اعترف بوجودها، وإلّا هل ينكر شيئا لو لم يكن موجودا؟ أي: هل يمكن أن ينفى الكذب لو لم يكن الكذب موجودا؟

ومن ثمَّ ثق إنَّك إذا نفيت الشيء أثبت وجوده؛ ولهذا كن فطنا ولا تنفي الوجودَ من الوجودي، بل انفِ إنْ لم ترتكب في حقّه شيئًا.

وقد يتساءل البعض:

وما علاقة الواحديَّة بالبعث؟

أقول:

البعث واحد وإن بُعث أكثر من مرَّةٍ، وهنا أقصد أنَّ الخَلق الأوَّل (كن) فكان الكون مبعوثا، وصارت الحياة متسارعة في التمدّد مع تسارع التمدّد الكوني.

أي: إنَّ أساس البعث خلقًا من بعد خلقٍ، مصداقا لقوله تعالى: {خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ}[145]؛ ولهذا فالقاعد الخَلقيَّة (البقاء) أمَّا (الفناء)

[145] الزمر 6.

فهو الاستثناء. {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}[146].

ولأنَّه لا شيء قبل الخلق إلَّا الخالق، والبعث شيء، إذن: البعث مخلوقًا، أي: إنَّه المخلوق الذي يسري في الوجود حياة.

ومع أنَّ البعث واحد فإنَّ المبعوث ليس بواحدٍ، ولتبيان ذلك أقول:

البعث أوَّلًا: كان بعثُ الوجود حياة من لا شيء.

البعث ثانيا: سيكون بعثُ الحياة من الشيء وجودا.

وعليه:

في بعثِ الخَلقِ الأوَّل يسرى الوجود حياةً، أمَّا في بعث الخلق الثاني فتسري الحياة وجودًا.

إذن:

أوَّلًا: كان الوجود بعثًا (بعث الحياة).

ثانيًا: سيكون الوجود بعثًا (بعث الأحياء) أي: بَعثُ الأموات من عدمٍ بالٍ إلى وجودٍ حيٍّ؛ بَعثٌ به يقوم الأموات من الأرض أحياء كما قام منها أبيهم آدم من قبلهم خَلقًا، وجميعهم وكأنّهم نبات الأرض، قال تعالى: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}[147]، ويوم قيامهم من الأرض قيامًا معجزًا سيعرف الجميع إنَّه يوم القيامة الذي فيه يُجمع الجميع ولكلٍّ حسابة. {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}[148]

---

[146] يس، 81.
[147] نوح 17، 18.
[148] النساء 87.

ومن ثمَّ فيوم البعث يوم قيامة، أي: قيامة الأموات أحياء ولا موت يلاحقهم، ولهذا فهو يوم البقاء الدّائم الذي تقوم فيه الحياة على حساب الموت؛ إنَّه يوم قيام الحقّ على الباطل؛ إذ لا خافية، {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}[149].

والحمد لله الباقي ربّ العالمين.

[149] الحاقة 18.

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف 68 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

صدر له (126) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

المؤلّفات

1 . مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 . الأصول الفلسفية لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3. فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 . منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 . سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 . المفاهيم العلمية دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربية للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 . البستان الحلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 . التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 . الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 . نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 . خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 . منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 . خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 . خدمة الجماعة رؤية قيمية معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 . البرمجية القيمية لمهنة الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 . البرمجية القيمية في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 . البرمجية القيمية في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18. الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 . البرمجية القيمية في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 . مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 . المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت . دمشق، 2009م.

22 . موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2009م.

23 . ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

24 . مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

25 . خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

26 . قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

27 . أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

28 . آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

29 . نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

30 . إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

31 . إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

32 . شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

33 . يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

34 . داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

35 . يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

36 . أيوب واليسع وذو الكفل وإلياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

37 . موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

38 . عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

39 . محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق . بيروت، 2010م.

40 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

46 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 . صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 . موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 . التطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 . ألسنا أمةً وسطا، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

53 . المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق . بيروت، 2011م.

54 . الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 . الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 . سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 . خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقّع وغير المتوقّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 . من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 . من قيم القرآن الكريم (قيم تدبّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 . من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 . من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 . من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 . من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 . من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 . من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 . من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 . من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 . من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 . من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 . الرفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 . تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 . ربيع النّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 . موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 . أسرار وحقائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 . وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 . ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 . العزل السياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 . السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 . الهويّة الوطنية بين متوقّع وغير متوقّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 . العفو العام والمصالحة الوطنية، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 . فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 . بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 . من معجزات الكون (خَلق . نشوء . ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 . مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 . موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 . آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 . إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 . نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 .

90 . هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 . صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 . لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 . إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 . إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 . إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 . يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 . يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 . شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 . أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100. ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 . يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 . موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 . هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 . إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 . اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 . داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 . سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 . زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 . يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 . محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 . الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 . صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 . الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 . مبادئ التنمية البشرية، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 . من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 . التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 . منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 . الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 . المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 . مبادئ فكّ التأزّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 . تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 . مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 . المعلومة الصائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 . الممكن (متوقّع وغير متوقّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 . الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

المؤلّف في سطور

أ د. عقيل حسين عقيل

مواليد ليبيا 1953م

بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الأولى جامعة الفاتح (طرابلس).

ماجستير تربية وتنمية بشرية جامعة جورج واشنطن 1981م مع درجة الشّرف.

. دكتوراه في الخدمة الاجتماعية.

. أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

. شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 . 1990).

. انتخب من قبل مؤتمر الشعب العام مفتشا عامّا لقطاع الشؤون الاجتماعية، ثمّ كلّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

. شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرا) 2007 . 2009م.

. انتخب أمينا عاما للتنمية البشرية بأمانة مؤتمر الشّعب العام 2009م.

. صدر للمؤلّف 78 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

. صدر له (126) مؤلّفا منها خمس موسوعات.

. أشرف وناقش 74 رسالة ماجستير ودكتوراه.

. مجالات اهتمام المؤلف البحثية:

1 . الخدمة الاجتماعية والتنمية البشرية.

2 . طرق البحث الاجتماعي.

3 . الفكر والسياسة.

4 . الإسلاميات.

5 . الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.